2274
.7892
S5
392

v.1

2274.7892.S5.392 v.1
al-Sadr
Usul al-'aqidah...

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 074499391

أصول العقيدة

في

التوحيد والعدل

بقلم

السيد مهدي الصدر

الجزء الاول

١٣٩٠ هجـ - ١٩٧٠ م

مطبعة الآداب في النجف الأشرف

al-Ṣadr, Mahdī ibn ʿAlī

Uṣūl al-ʿaqīdah

أصول العقيدة

في

التوحيد والعدل

بقلم

السيد مهدي الصدر

الجزء الاول

١٣٩٠ هجـ - ١٩٧٠ م

مطبعة الآداب في النجف الأشرف

2274
.7892
.S5
.392

V.1

« إنّ الذين قالوا ربّنا اللهُ ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحيوٰة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون . نُزُلاً من غفور رحيم . ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » .

فصلت

٢١ - ٢٢

« إنَّ الذينَ آمنوا وعَملوا الصالحاتِ أُولئكَ هُمْ خيرِ البريّةِ . جزآؤُهمْ عِندَ ربّهمْ جناتُ عدنٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها أبدا ، رضيَ اللهُ عنهمْ ورضوا عنهُ ، ذلكَ لمِنْ خشيَ ربَّهُ » .

(البيّنه ٧ - ٨)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

يحتل علم التوحيد مركز الصدارة بين العلوم ، لجلالة موضوعه ، وسمو غايته ، وخطر شأنه في دنيا العقيدة والإيمان .

لذلك دأب العلماء المسلمون على تدوين أسفاره ، وتنسيق أبحاثه ، وعرضها بأطر وأساليب مختلفة باختلاف العصور والأذواق .

ومن الواضح أن أسفار العقيدة محاطة بركام من الألفاظ والمصطلحات العلمية الغامضة ، مما يعيق الكثيرين عن اجتناء ثمارها والإفادة منها .

وغدوا يلتمسون من يؤنس وحشتها ، ويسلس قيادتها ، ويخرجها باسلوب شيق يستهوي النفوس ويغريها بالبحث والتتبع .

وكنت ممن استشعر ضرورة الاضطلاع بهذه المهمة ، ورغب في تحقيق تلك الأمنية ، فتطوعت بهذا المجهود المتواضع عسى أن تجد فيه الجماهير الواعية بعض تلك الاماني .

ويحسن بي التنويه عن محتوى هذا الكتاب : انه لم يوضع للمتضلعين في علم الكلام ، وإنما وضع لتثقيف الجماهير المؤمنة

وتركيز عقيدتها ، وتزويدها بالقدر الممكن من المعارف الدينية .

من أجل ذلك فقد جهدت ما استطعت في تجنب المفاهيم الفلسفية الغامضة والمصطلحات العلمية المبهمة ، ليستشعر القارىء - وهو يطالع الكتاب - أنه يسير في رحلة فكرية شيقة لا وصب فيها ولا عناء .

فيجتلي طرفاً ممتعاً من صنوف المشاهد والروائع الكونية من عالم السماء والجو ، الى عالم الانسان والحيوان والنبات ، مستعرضاً تلك المتاحف الإلهية المدهشة ، الزاخرة بآيات القدرة والابداع .

ويشهد فيما يشهده خلال هذا الكتاب ، فصلا يهز الوجدان ويستثير المشاعر ، حيث يرى صراعاً فكرياً بين معسكرين لا يفتأان عن الصراع مدى الحياة .

ذلك هو : معسكر الإيمان ومعسكر الكفر ، في صراعهما بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، فيجتلي آنذاك قوة الإيمان وعزته وانتصاره ، أزاء وهن الكفر وخسته واندحاره ، مما يضاعف غبطة المؤمن واعتزازه بايمانه .

وما أن ينتهي المطالع من هذا الفصل ، حتى يجد حقلين آخرين يعتبران مركز الثقل من العقيدة ، وهما : التوحيد . . . والعدل . . . ليرى فيهما خلاصات مختارة لأهم أبحاثهما وأشدها ضرورة في عالم العقيدة والايمان .

ورجائي من الله عز وجل أن يجعل هذا المجهود المتواضع، خالصاً لوجهه الكريم ، وفائزاً بشرف قبوله ورضاه . وأن ينفعني به واخواني المؤمنين، ويثيبني عليه يوم الدين (يوم لاينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم)، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الكاظمية — مهدي الصدر

الفطرة

« فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة اللهِ التي فَطر الناس عليها : لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم » :

القرآن الكريم

• • •

كل مولود ، يولد على الفطرة ، حتى يكون أبواه يهودانه أو ينصرانه .

الرسول الاعظم (ص)

فطر الانسان على حب الاستطلاع ، والتعرف على حقائق الأشياء : فهو لا ينفك دائباً في اكتشاف أسرار الحياة ، والتوصل الى كنه ما يحيط به من الكائنات . وبهذه الغريزة الاستطلاعية قطع الانسان أشواطاً بعيدة في العلوم والمعارف ، وترقى في مدارج الحضارة والمدنية ، واحرز ما أحرز من الاكتشافات والمخترعات .

وبهذه الغريزة نفسها توصل الى الايمان بالله ، ونال شرف العقيدة بالله ، ذلك أنه يدرك بفطرته السليمة أن كل معلول يستلزم علة توجده ، وكل مصنوع يتوقف على صانع ، وأنه يستحيل - بحكم العقل والبداهة - وجود معلول من غير علة ، ومصنوع من غير صانع .

أدرك ذلك ثم تطلع في رحاب هذا الكون وآفاقه الفسيحة فرأى في صفحاته المشرقة آيات الخلق ، وروعة الأبداع ، ودقة النظام وحكمة التدبير ، ما جعله يوقن بفطرته أن لهذا العالم خالقاً عظيماً ومدبراً حكيماً ، لاستحالة وجوده من غير موجد .

وبهذا الشعور الفطري آمن الانسان ، وكلما ازداد وعياً وشعوراً بأسرار الكون وخصائص عناصره ، ازداد ايماناً ويقيناً .

والايمان كما هو فطري في البشر ، كذلك هو ضرورة انسانية . . . وحاجة نفسية ملحة ، لا يستغني عنها كل فرد ، لأن النفس تصبو الى العقيدة ، وتهفو اليها لرسوخ الحاسة الدينية

فيها ، فان ظفرت بها أحست بالطمأنينة والرخاء ، وان خسرتها شعرت بالقلق والعناء .

ذلك لأن الإيمان يشحن النفس ويمدها بطاقاته الروحية الضخمة التي يستلهمها المؤمن ويستمد منها القوة ومضاء العزيمة والجلد والثبات في خوض غمرات الحياة ومعاناة أزماتها الخانقة لإيمانه بلطف الله تعالى ، وحكمة تدبيره وسمو عنايته ورعايته في سائر ظروفه وأطواره ، فيجد لذلك من راحة الضمير وطمأنينة النفس ما لا يستشعره الملحد لخسرانه نعمة الإيمان بالله والتوكل عليه .

فلو لا الإيمان بالله وحسن عزائه وتسليته للمنكوبين في الحياة ، لقضى الانسان هماً وكمداً ، فمن يسليه عن معاناة ضروب الأرزاء والظلامات غير ايمانه بالله ورجائه منه أن يكافيه في الحياة الأخرة ما يعوضه عن آلامه العاجلة ، فيسعد هناك في دار كرامته متمتعاً بما اشتهت نفسه ولذت عينه ، من جنان ونعيم خالدين .

من أجل ذلك فقد أدرك علماء النفس أهمية الإيمان . وعظيم أثره في إسعاد النفوس وتزويدها بالصبر والثبات ، فطفقوا يدعون اليه رغم تباعد الكثيرين منهم عنه .

قال ديل كارنيجي في كتابه « دع القلق وابدأ الحياة » : (إن أحدث العلوم وهو الطب النفسي يبشر بمبادىء الدين ، لماذا ؟ . . . لأن أطباء النفس يدركون أن الايمان القوي والاستمساك بالدين والصلاة كفيلة بأن تقهر القلق والمخاوف

والتوتر العصبي ، وأن تشفي اكـثر من نصف الأمراض التي نشكوها) .

وقال أيضاً : (تدل الاحصاءات في امريكا على أنه ، في كل خمس وثلاثين دقيقة يقع حادث انتحار . وفي كل مائة وعشرين ثانية يصاب شخص بالجنون ، ومعظم حوادث الانتحار وكثير من حالات الجنون على الأرجح يمكن أن يقطع دابرها إذا أصاب هؤلاء الناس شيئاً من الامان والاطمئنان ، وسكينة النفس التي يجلبها الدين وتجلبها الصلاة) .

وقال و . ج . ماكبريد في كتابه « عدوك الأول الخوف » : (ويدرك علماء النفس اليوم عظيم أثر الدين الصحيح في تزويد الرجال والنساء بالجلد والإيمان الضروريين لتحمل تحدي الحياة وتلقي سهام الحظ الغشوم) .

وهناك اعتقاد يتعاظم على الأيام ، بأن كثيراً من التوتر العصبي الذى يمتاز بـه العصر راجع الى أن الناس وقد أضاعوا إيمانهم بالله ، قد أضاعوا في الوقت نفسه إيمانهم بانفسهم بحيث أنهم إذا ما واجهتهم أزمة على شيء من الخطورة بالنسبة اليهم وجدوا أنفسهم وليس لهم من معين إلا طرائق الهرب المعروفة من مثل الشراب والمخدرات والانتحار والجنون) (١) .

هذا الى أن حياة المؤمن فسيحة الارجاء ، واسعة المدى ،

---

(١) السلسلة السيكولوجية . نشر دار العلم للملايين .

لاعتقاده في المعاد وحسن مآبه وشرف مصيره به ، وفي ذلك أمل كبير لا يستشعره الملحدون الذين جحدوا الله واليوم الأخر ، فعاشوا في حياة قصيرة ومصير خاسر .

والايمان بعد هذا ضرورة عقلية :

فشكر المنعم فرض يقتضيه العقل ويمليه الوجدان . إذ كلما فكر الانسان في نفسه وجدها محفوفة بصنوف النعم وألوان اللطف ، وأدرك بداهة أن تلك النعم والألطاف لم يغنمها بمشيئته أو مشيئة غيره من البشر ، فهي لا محالة من واهب قدير كريم

وواجب الشكر يفرض على الانسان أن يعرف ذلك المنعم التماساً لشكره وطلباً لرضاه . . . « وهذا هو الايمان » .

والإيمان كذلك ضرورة أخلاقية :

فهو العامل القوي في تهذيب الضمائر وتقويم الأخلاق واصلاح المجتمع والافراد ، بما يغرز في وعي المؤمن ، ويشعره باطلاع الله عليه ، ورقابته له ، ومجازاته إياه على أعماله . . . إن خيراً فخير . . . وان شراً فشر .

وبهذا الشعور يستقيم الانسان ، وتسموا أخلاقه الى أوج الفضيلة والكمال ويغدو انساناً مثالياً متحلياً بخصائص الانسانية الرفيعة :

وعلى نقيض ذلك اذا ما تجرد المرء من الايمان ، وانعدم فيه شعوره النبيل ، ماتت في نفسه الفضائل ، وتلاشت فيها

بواعث الخير ، واستبدت به نوازع الشرور والآثام .

وما هذه الفوضى الأخلاقية ومآسيها المحزنة إلا نتائج حتمية لضعف قيم الايمان ومفاهيمه .

وما يعانيه العالم من كوارث الحروب وأرزائها التي زعزعت كيان المجتمع البشري بالأمس وتنذره اليوم بالدمار الا من آثار جدب الضمائر واقفارها من خصائص الايمان ومثله الرفيعة ، مما أثار في الأمم الكافرة هوس الحروب لاستعباد الشعوب وابتزاز خيراتهـا .

والايمان فوق ذلك . . . ضمانة دينية من ضمانات حفظ النفس.

فقد تواترت الأديان السماوية واتفقت كلمة الانبياء معززة بالحجج والبراهين على وجود الله تعالى ، وعظيم إكرامه للمؤمنين وأليم عقابـه للكافرين ، لذلك كان محتماً على العاقل أن يؤمن بالله حفظاً لنفسه ووقاية لها من العذاب واذا كان الايمان فطرياً في النفوس ، وكان حافلا بتلك الخصائص والفضائل فعـلام جحد الجاحدون وآثروا الكفر على الايمان ؟ . . .

إن من الناس من انحطت مداركهـم ، وتبلد وعيهم ، وعشت بصائرهم عن اجتلاء آيات الألوهيـة رغم سطوعهـا واشراقها ، فعموا عنها كما يعمى الخفاش في ضوء النهار ، فهم كالأنعام أو أضل .

ومن الناس من طغى عليهم الجمود ، وأغوتهم نزعة التقليد

والمحاكاة فقلدوا آباءهم رغم جهلهم وضلالهم، وتأثروا بالمحيط الكافر الذي يعيشونه مما صيرهم ضحايا التقليد والجمود .

ومن الناس من آثروا الكفر على الإيمان استجابة لأهوائهم المريضة وإشباعاً لغرائزهم الجامحة كيلا يتقيـــدوا بمبدأ الطهر والعفاف الذى تفرضه العقيدة ويمليه الإيمان ، فانغمسوا في حمأة الرذيلة والفساد .

وحين تنكرت البشرية لواقع الإيمان تدار كتها العناية الآلهية بلطفها السامي وتوجيهها الرشيد ، فأرسلت اليها رسلها الميامين يحملون لها مشاعل النور ، لينيروا لها طرائق الحياة ، وينقذوها من متاهات الكفر والضلال الى مناهج الحق والعدل والسلام .

البراهين الفلسفية

على

وجود الله تعالى

تيمسلفا نبهانيا

بقلم

[illegible]

لاتتوقف معرفة الله عز وجل على البراهين الفلسفية والأدلة العقلية فهي من اليسر والوضوح ما جعلها قريبة المنال، يدركها الانسان بفطرته كما ألمعنا اليه أو بشيء من التوجيه والارشاد.

وقد كان اعتماد البشر منذ القدم على البراهين الكونية في نشدان العقيدة والإيمان اكثر من البراهين الفلسفية لدقة الثانية عن أكثر الأفهام.

كما أكثر القرآن الكريم من لفت الأنظار والعقول الى صنوف الآيات الكونية لتستجلي منها العبر والدلائل على صانعها القدير:

فمن ذلك ما حكاه عن ابراهيم الخليل في تأملاته ومحاكماته الفكرية في بعض الآيات السماوية والاهتداء بها والانطلاق منها الى قمة الإيمان واليقين: (وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الافلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الظالمين. فلما رأى الشمس بازغة، قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم اني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين).

من أجل ذلك لم يكن الإيمان منوطاً بالبراهين الفلسفية وليست هي الوسيلة الوحيدة اليه:

بيد أن احتدام الجدل والنقاش بين أنصار الايمان واشياع الكفر هو الذى دفع العلماء الآلهيين الى وضع طائفة من البراهين الفلسفية على وجود الله عزوجل تفنيداً لخصومهم واحتجاجاً عليهم ، فجاءت تلك البراهين آية في الروعة والبلاغة وسطوع البرهان .

وهي عديدة متشابهة وان اختلفت أساليبها واطرها ، بيد أني أعرض نماذج منها مقتصراً على أوضحها دلالة وأقواهـا حجة وبرهاناً .

« ١ » برهان الخلق :

وهو أقوى البراهين حجة وأيسرها فهماً ، وصورته :

أن كل موجود لابد له من موجد ، وكل مصنوع لابد له من صانع . لأستحالة وجود الشيء - عقلا وبداهـة - من غير موجد .

وهكذا كلما استعرضت الموجودات وجدت كلا منها مفتقراً الى موجد ، وهذا الموجد مفتقرا الى موجد آخر ، دواليك ، دون أن تلمح فيها ما يؤهل وجوده لذاته .

وحيث كانت الموجودات كذلك ، فلابد لها من موجـد يوجدها ولا يتوقف وجوده على غيره ، وهو الله الواجب الوجود.

وبتقرير آخر :

إن الموجود لا يخلو من ثلاثة فروض . فهو إما :

واجب الوجود أو ممكن الوجود أو مستحيل الوجودفواجب الوجود ، هو : الموجود بنفسه ولذاته ، من غير موجد .

(اى ما كانت علة إيجاده ذاتيه فيه) .

وممكن الوجود هو : ما يتوقف وجوده على غيره .

وإذا استعرضنا الموجـودات وجدناها ممكنـة الوجـود ، لقصورها وافتقارها الى غيرها ، وكل ممكن لابد له من موجد فلابد لهذه الموجودات من موجود لذاته ، يوجدها ، ولا يتوقف وجوده على إيجاد غيره ، ولولاه لم توجد سائر الأشياء والموجودات لفقدها علة ايجادها . وهي موجودة بداهة ، فصانعهـا موجود ضرورة وحتماً .

وأما المستحيل ، فهو : ما يمتنع وجوده . كاستحالة اجتماع النقيضين أو الضدين ، كالوجود والعدم ، والنور والظلام .

« ٢ » برهان الغاية :

وخلاصته : أن من نظر الى الكون نظرة فاحصة مدققة ، رأى كل موجود فيـه متصفاً بغاية ساميـة ، ونظام دقيق ، وتدبير حكيم .

فالفلك في علياء السماء - رغم عناصره الجمة وأجرامـه الهائلة - يدور بانسجام وانتظام مدهشين .

والانسان وما زود به من الأعضاء والجوارح ، وقيام كل

منها بوظائفه الخاصة ، وما منح من المواهب العقلية والطاقات الفكريـــة :

والحيوان وما اتصف به من عجائب الفطنة والألهام :

والنبات وما اتصف به من وسائل النمو والتكاثر :

من تأمل ذلك كله اضطرته البداهة الى الإيمان بخالق الكون ومدبره ، لاستحالة وجود الشيء من غير موجد ، والنظام من غير منظم ، والتدبير من غير مدبر :

« ٣ » برهان الاخلاق :

وهذا البرهان يثبت وجود الله عز وجل بالنزعة الحلقيـــة المغروسة في الإنسان والمسيطرة عليه ، والتي يستحيل وجودها من غير ارادة موجهة .

ذلك أن قانون الأخلاق هو مجموعة أوامر ونواهي توجيهية شاقة على النفس ، تناقض أهواءها وتقيد غرائزها العارمة .

والانسان رغم ذلك يتقيد بذلك القانون ويستجيب له رغبة وطواعية . فيهوى الحق والعدل والمروءة ، وإن كانت مخالفـة لهواه ، ويمقت للباطل والجور والإثرة ، وان كانت موافقة لـه ويؤثر الواجب المجهد على أهوائه المحببة اليه .

وهذا برهان ساطع على الخلاق الحكيم ، الذي خلق الانسان وغرس في نفسـه تلك النزعة الخلقية ، وحببها اليـــه رغـم

قيودها الشاقة :

وقد يزعم البعض أن تلك النزعة الخلقيـة ناشئة ومتطورة عن التقاليد والأعراف الاجتماعية حتى غدت نزعات واشواقـاً مسيطرة عليه :

وهو زعم باطل لأن ادراك العلة لاينفي حكمـة المعلول وسمو غايته ، فمعرفة أسرار الطاقة الكهربائية لا تبطل الغاية من صنعها وتوليدها . وخفي عليهم أن تعليلهم ذلك مفتقر إلى تعليل آخر ، حيث عللو النزعة بالتقاليد الاجتماعية .

اذن فمن الذي غرس تلك التقاليد في وعي الإنسان ، وفرض سلطانها عليه رغم قيودها الباهضة ؟ .

اليس ذلك دليلا على أن للنزعة الخلقية غارساً . . . خارجاً عن نطاق الانسان ؟ غرسها في نفسه وحببها اليه لأغراضه الحكيمة

البراهين الكونية
على
وجود الله تعالى

تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام

لـ

برهان الدين إبراهيم

وعلام نلتمس البراهين الفلسفية على وجود الله ، وهـذا الكون زاخر بصنوف الآيات والبراهين على وجوده وتوحيده وهي تدعو الى الإيمان بقناعة ويسر .

لذلك كان اعتماد البشر منذ القدم على البراهين الكونية في طلب العقيدة أكثر منه على البراهين الفلسفية ، بل هي لا تغني عن براهين الكون شيئاً .

حسبك ما أحرزه أعلام الصحابة في فجر الأسلام من سمو الإيمان وقوة اليقين ما لم يحرزه عظماء الفلاسفة والحكماء ، لأهتدائهم بأنوار النبي (ص) وتبصرهم بآيات الله وبراهين خلقه .

بيد أن للفلسفة الإلهية قيمتهـا في مضمار الجدل والنقاش ولكنها سبيل خطر لا يأمنه إلا العلماء الافذاذ .

فمن الحكمة في تثقيف الجماهير بالمعرفة الإلهية ، ارشادهم بالبراهين الكونية وتنويرهم بالقرآن الكريم وآثار أهل البيت (ع) وهذا ما يزودهم بالمعرفة ويجنبهم غموض الفلسفة وعنائها :

ومن الخير للأنسان أن لا يسرف في البحث عن كنه الله تعالى وادراك حقيقته ، فذلك مما يستحيل على العقل إدراكه والتوصل اليه.

لأن العقل مهما آتسع أفقه وعظم وعيه ، محـدود القدرة والإدراك ، ومتى أرهقه الانسان وكلفه فوق وسعـه ضل عن القصد ، وزجه في متاهات الظنون والاوهام .

فالعقل في ادراك الحقائق كآلة التصوير ، تستطيع التقاط

الصور المحدودة وتعجز عن تصوير غير المحدود .

كذلك العقل ، فانه يستطيع ادراك ما كان داخلا في إطار قدرته من القضايا المحدودة ، ويرتد عاجزاً كليلا عما سواها .

وحيث كان الله سبحانه منزهاً عن حدود الذات والصفات ونطاق الزمان والمكان ، استحال على العقل تصوره وإدراكه .

وكيف يتطاول الانسان الى البحث عن كنه الله تعالى ، وهو عاجز عن إدراك كنه مخلوقاته ، واكتشاف الغازها الغامضة ؟ ! ! .

فاين هو من معرفة اسرار الحياة والروح والعقل ، وكثير من دقائق المرئيات وجلائها . . . ؟

وكل ما توصل اليه البشر من معرفة الله عز وجل ، إنما هو : بالتفكير في آيات صنعه ، فاستدلوا بها على وجوده ، وبغاياتها على حكمته ، وانسجامها وانتظامها على وحدانيته .

من أجل ذلك جاء التحذير الرهيب عن التفكير في ذات الله تعالى في نصوص عديدة ، منها قول الامام الباقر (ع) : « إياكم والتفكير في الله ولكن اذا أردتم أن تنظروا الى عظمته ، فانظروا الى عظيم خلقه » (١) .

وقال الصادق (ع) : « من نظر في الله كيف هو ، هلك » (٢) ولا يفوتني وأنا أحاول استعراض طرف من الآيات الكونية

---

(١) و (٢) عن الوافي م ١ ص ٨٣ عن الكافي .

أن أنوه بحقيقة هامة ، تعتبر مفتاحاً للأبحاث التاليـــة :

وهي : أن كل موجود اتصف بغاية خاصة وفائدة ملحوظة كالكتاب المؤلف ، والقصر المشيد ، والجهاز المخترع ، فانه يدل دلالة واضحة أن موجده ذو عقل وقصد ، عرف الغايـــة من صنعه فاوجده لأجلها . وكلما قوت الصلة وانجلت الحكمة بين الموجود وغايته ، قوى اليقين : بحكمة الموجد ، وقصده لما أوجد . ندرك ذلك وان لم نر الموجد ، أو يخبرنا عنه مخبر ، وتلك حقيقة ناصعة لا ريب فيها .

تأمل ذلك جيداً ثم انظر هذا الكـــون العظيم ، بعناصره المختلفة وآياته الباهرة كالسماء ومـا ازدانت بـه من شمس وقمر وكواكب والأرض وما حوتـــه من صنوف الأحياء البشرية والحيوانية والنباتية : وأنواع الجمادات وما اتسمت عليها جميعاً من آيات القدرة والابداع ، وروعة الانسجام ، ودقة النظام ، وحكمة التدبير ، وسمو الغاية .

متى تأملت ذلك أيقنت أن لهذا الكون خالقاً عظيماً ، ومدبراً حكيماً ، خلقه بقدرته ، وأنشأه بإرادته وقصده .

وحيث كان استعراض الآيات الكونية متعذراً لاتساع آفاق الكون وتعدد جوانبـــه ووفرة عناصره ، فلا مناص من الاقتصار على طرف يسير منها .

وقد ارتأيت بحث تلك الآيات على ضوء العلم الحديث ،

تجاوباً مع روح العصر ، والتماساً للاسلوب المؤثر ، مشيراً الى أبرز مظاهر القدرة والابداع فيها .

فليس الغرض بحث تلك الآيات بحثا مسهباً ، وإنما الغرض هو اجتلاء أبرز وأهم ما تتسم به من صنوف الشواهد والدلائل على موجدها القدير الحكيم :

عالم السماء

وأول ما نبـدأ باستعراض عالم السماء ، وهو أدق العوالم سراً ، وأظهرها عظمة وجلالا .

(١) الشمس :

وهي كرة غازية هائلة تتفجر حرارة وضوء ، وقد ازدان بها الكون وازدهرت بها الحياة . فتجلت بها العظمة والابداع بجلائل خصائصها وآثارها ، فمن عظمتهـا : أنها أضخم من الارض حجماً بمليون وربع مليون مرة ، ويبلـغ قطرها زهاء (٨٦٥) الف ميل ، وبعدها عن الارض نحواً من (٩٣) مليون ميل ، وضوئها يصل الى الأرض في ثمان دقائق وربع .

وحسبك من آياتها الكثر أنها تنطوي على حرارة هائلة قدرها المعنيون بدراسة الفلك (بعشرين مليون درجة مؤية) في أعماقها و (بستة الآف درجة مئوية) على ظاهر سطحها .

وقد أثبت العلم أن تحديد ذلك البعد وتلك الدرجة الحرارية هما في غاية الحكمة والصواب ، لتكييف حرارة الشمس وجعلها ملائمة لا تزيد ولا تنقص عما تحتاجه الأحياء ، إذ كل اختلال في مقاييس الحرارة والبعد يسبب دمارها وفنائها :

فلو كانت طاقتها الحرارية ضعف ما هي عليهـا الآن ، لأحترقنا بلظاها ، ولو كانت نصفه لأهلكنا البرد والانجماد :

وهكذا لو بعدت ضعف بعـدها الحالي لغدت الأرض زمهريرا تستحيل فيها الحياة . ولو تدانت الى نصفه ، لاضطربت الأرض بشواظها وأهلكت سائر الاحياء .

ومن عجائب الشمس المدهشة ، طاقتها الحرارية والضوئية الهائلة التي ما برحت تشعها ملايين السنين والأعوام ، دون أن تنضب أو تبيد .

فقد ذكر العلماء أن السنتمتر المربع من سطح الشمس يشع في الدقيقة الواحدة (٨٩) الف سعرة حرارية ، ويعمل عمل محرك قوته : (تسعة) أحصنة ، فالمتر المربع يعمل ما يعادل (٩٠) الف حصان ، وسطح الشمس كله يعمل في إشعاعه عمل (خمسمائة وثمانين الف مليون مليون مليون حصان) ، كل ذلك عـدا الانفجارات المدهشة التي تحدث أحياناً في الشمس والتي سجلتها المراصد .

فمن ذلك ما أذاعه مرصـد (هار فارد) حيث قال مديره الدكتور (دو نالد) : [إن الإنفجار الذي حدث في الشمس قـد سجلته عـدة أفـلام بواسطة (الكو نجراف) وهو جهاز لتسجيل الشعلات النارية والضوئية الخارجة من الشمس ، واتضح منه أن قوة الانفجار الذى حدث يعادل انفجار (مائة مليون) قنبلة هيدروجينية ، دفعة واحدة] .

وهكذا القول في طاقاتها الضوئية . فقد قرر الخبراء أن

السنتمتر المربع الواحد من سطح الشمس يشع من الضوء ما يعدل (خمسين الف شمعة) ، فلو ضاعفت هذا النور بما يساوي قرص الشمس ، فكم تقدر طاقتها الضوئية ؟ ! !

وبالرغم مما تستهلكه من تلكم الطاقات النارية والنورية الخارقتين ، فانها لا تنضب ولا تبيد ، وفيها فوق ذلك من القوى المخزونة ما يؤهلها للاشعاع كما هي عليه الآن ملايين السنين والأعوام .

وان تعجب فعجب لما أودع الله في الشمس من عظمة الفوائد والمنافع أن جعلها سبباً لازدهار الأرض وحياة الأحياء :

فهي مصدر الحرارة والضوء الضروريين لسائر الأحياء ، ولولاها لتخبط العالم في دياجير الظلام واستحالت فيه حياة الانسان والحيوان والنبات ، لتوقفها على الحرارة والضوء .

وهي ملاك عملية التبخير والتصعيد لتكييف مياه الأبحر ، وجعلها ماء عذبا يروي الناس والأحياء ، ولولاها لهلكت ظمئاً وجفافاً :

فانظر كيف جعل الله الشمس ينبوعاً دافقاً يفيض على الدنيا بالوان الخير والجمال .

وليست الشمس وحيدة في عالم السماء ، وإنما هي احدى الشموس الكثر التي يزخر بها الفضاء ، وفيه ما يفوق الشمس فخامة وحرارة وضوءا ، غير أنها تبدو ضئيلة لبعدها الشاسع .

يقول شابلي استاذ علم الفلك بجامعة هارفارد :

« إن عدد الشموس وهي النجوم المشتعلة التي أمكن رصدها بالاجهزة الخاصة بالرصد يبلغ (مائة مليون مليون مليون شمس) وهذه لا تعتبر شيئاً بالنسبة لما لم تستطع الأجهزة رصده لبعد هذه النجوم عن قدرة الاجهزة » .

واليك مثلا (الشعرى اليمانية) فانها تفوق الشمس حرارة وضوءا (بستة وعشرين) ضعفاً ، فلو حلت محل الشمس لاحترقت الكرة الأرضية بلظاها وغلت مياهها .

والنجم (سهيل) فانه أضوء من الشمس (بألفين وخمسمائة ضعف) و (السماك الرامح) أكبر حجماً من الشمس (بثمانين مرة) ، واسطع منها بثمان الآف مرة . و (موكب الجوزاء) أعظم حجماً من الشمس بـ (سبعة وعشرين مليون ضعف) : و (قلب العقرب) أضخم من الشمس بـ (تسعين مليون ضعف) ومن النجوم ما يشع خمسمائة ألف ضعف من إشعاع الشمس ، إذ يشع في الدقيقة الواحدة ما تشعه الشمس في سنة كاملة .

هذا ما يعرضه المختصون بدراسة الفلك ، وهو يصور سعة الفضاء ومداه اللانهائي ، كما يصور ضئآلة كرتنا الأرضية أزاء تلك الأجرام الهائلة .

أفلا تدل الشمس ونظائرها في عالم السماء على الخلاق القدير والمدبر الحكيم . . . ؟ لاستحالة وجودها من غير موجد ! !

(٢) القمر :

وهو كوكب سيار معتم ، تابع للأرض ، يدور حولها ، ويستمد نوره من الشمس ، وهو أجمل الكواكب السماوية وأقربها الى الأرض ، وأكثرها نفعاً بعد الشمس ، يبعد عنا قرابة (٢٤٠) الف ميل . وحجمه : أصغر من الأرض زهاء (٥٠) مرة . وقطره : (٢٢٠٠) ميلا . وقد ارتسمت عليه آيات الحكمة والابداع ، كما تجلت بالشمس .

فمن حكمة نظامه : أنه لا ينفك عن ملاحقة الأرض ، يجري نحوها ، ويدور حولها ، لا يتخلف عن سيره ، ولا يحيد عن مداره ، فيقطع في السنة (١٢) دورة ، كل دورة تستغرق شهراً كاملا .

فتراه في مطلع الشهر هلالا دقيقاً ، ثم ينمو قليلا قليلا حتى يغدو بدراً كاملا وضاء ، ثم يتضائل تدريجياً كما نما حتى يختفي آخر الشهر ليعود كما بدأ من جديد . وهكذا تتجدد سيرته بانتظام واطراد مدهشين ، ليكون رمزاً للشهور ودليلا عليها .

وقد تجلت حكمة بعده عن الأرض ، فلو كان بعده (٥٠) الف ميل ، مثلا ، لبلغ المد والجزر مبلغاً هائلا يغمر الدنيا كلها بالماء ، لأثره في عملية المد والجزر .

ويعتبر القمر ثاني الشمس أهمية ونفعاً : فهو الذي يطل على

الدنيا بطلعته الجميلة ونوره المثلائي ليؤنس وحشة الليل ويخفف ظلامه الرهيب ، ولولاه لغـدى الليل حالكاً مفزعا ، فيهتدي السائرون بنوره في مهامه القفار والحج البحار .

وللقمر أهمية في تسبيب المد والجزر اللذين يغمران الموانيء البحرية ولولاهما لتراكمت فيها الرواسب وانعدم نفعها .

وليس القمر وحيداً في عالم السماء . فقد اكتشفت المراصد أقماراً جمة تمرح في الفضاء ، وتدور حول الكواكب السيارة كما يدور القمر حول الأرض :

فللمريخ ونبتون قمران .

ولأورانوس (٥) أقمار .

ولزحل (٩) أقمار :

وللمشتري (١٢) قمراً .

أفلا يدل القمر بخلقه ومنافعه ونظامه على الصانع القدير والمنظم الحكيم :

لقد أدهش الناس اختراع الاقمار الصناعية واطلاقها عبر الفضاء ، فعلام لم يدهشهم هذا القمر الأصيل رغم المفارقات الجسيمة بينه وبينها :

(٣) النجوم :

وهي أجرام منيرة ، عظيمة الحجم ، نائية البعد ، تضاهي الشمس او القمر روعة وابداعاً ، غير أن بعدها الشاسع يظهرها

نقطاً نورانية في السماء .

وناهيك في أبعادها أن ضوء الشمس يصـــل الأرض في ثمان دقائق ، بيـد أن أقرب نجم الى الأرض لا يصلها ضوؤه الا باربع سنين ضوئية :

وحيث أن مقاييس الأبعاد لا تفي بتحديد أبعـاد النجوم الشاسعة فقـــد ابتكر الفلكيون السنة الضوئية مقياساً لها ، وهي عبارة عن المسافة التي يقطعها الضوء وسرعته في الثانية (١٨٦) الف ميل ، مضروبة في دقيقة ، فساعة ، فيوم ، فشهر ، فسنة ، وحاصل الضرب هو بعـد السنة الضوئية ، وهي بتحديد آخر (٦ مليون مليون ميل) تقريباً .

وإنه ليدهشنا جداً ما يرويه للعلماء عن أبعاد الكواكب ، تلك الأبعاد المفرطة الدالة على سعة الفضاء ومداه اللانهائي ، حيث قال أحدهم « إن معظم النجوم التي نراها بالعين المجردة في الغالب على أبعاد تتراوح بين المئتين والثلاث مائة سنة ضوئية وأبعاد النجوم التي ترى بالتلسكوب تقاس بالوف السنين الضوئية وقد ثبت مؤخراً أن بعـــد بعضها مليون سنة من سني النور أو اكثر » (١) .

وقال آخر : « وقد انتهى رأي علماء الفلك الى أن مجموعتنا

---

(١) عجائب السماء والفلك ، لمنصور حنا جرداق ، استاذ علم الفلك في الجامعة الامريكية .

النجمية قد تشتمل على مائة بليون من النجوم ، بعضها أصغر كثيراً من شمسنا ، وبعضها أكبر منها أضعافاً مضاعفة ، وهي : المجموعة النجمية التي يسميها علماء الفلك (المجرة) ، وهي من الضخامة والسعة بحيث يقضي شعاع الضوء ـ الذي ينتقل بسرعة (١٨٦) الف ميل في الثانية ـ مائة ألف سنة في مسيره من أحد طرفيها إلى الآخر :

ومن وراء المجرة التي نحن فيها وعلى بعد أعظم مما يستطيع العقل البشري أن يتصوره مجرات أخرى ، وهي ليست بعيدة عنا فحسب ، بل بعضها بعيد أيضاً عن البعض الآخر أعظم البعد .

وقد أصبح معروفاً على وجه التحقيق وجود (مائة الف) أو اكثر ، من هذه المجرات .

وقد تمكن العلماء بعمليات رياضية معقدة طويلة من أن يقروا أبعاد النجوم وسرعتها وجرمها ، فاذا درسنا المجرات البعيدة تبين لنا أمر يدهشنا كل الدهشة ، وهو : أن هذه المجرات تبدو آخذة في الابتعاد عنا مندفعة في الفضاء بسرعة هائلة ، قد تبلغ (١٤) الف ميل في الثانية ، وتبدو علاوة على هذا ، أنها كلما ازدادت بعداً ازدادت سرعة اندفاعها :

هذه هي الفكرة المفزعة التي اظهرها البحث في السنين

الأخيرة عن عالم آخذ في التمدد والانتشار بسرعة هائلة » (١)

ولأجل هذا البعد السحيق تتراءى الأجرام السماوية ضئيلة خافتة ، وهي أعظم ما تكون ضخامة ونوراً .

فالشمس رغم ضخامتها الهائلة تعتبر ضئيلة أزاء بعض الأجرام التي يعج بها الفضاء ، وفيها ماهو أعظم حجماً منها وأقوى حرارة وضوءا ، كما أشرت اليه .

والنجوم بعد هذا ذات منافع للناس ، فهي الأعلام التي يستهدي بها الناس في ظلمات البر والبحر .

وهي القلائد الوهاجة التي ازدان بها جيد السماء ، ولولاها لغدت موحشة في الليل الحالك .

أليست هذه النجوم آيات ناطقة . . تعرب عن قدرة بارئها وعظمته وحكمته . . . ؟

(٤) الفلك :

وهو من أعظم المظاهر السماوية صنعاً ، وأدقها نظاماً ، وأروعها جمالا وجلالا .

وهو يتألف من العناصر التالية :

أ ـ الشمس : وهي أم الكواكب ، ومحور مدارها .

---

(١) مجلة المختار ، من مقال عنوانه « العلم ينظر الى السماء » لكاتبه : بروس بلوفن .

ب ـ الكواكب السيارة التسعة : المختلفة حجماً وأبعاداً وسيراً : فبعضها أصغر من الأرض وبعضها اكبر منها أضعافاً وبعضها قريب من الشمس وبعضها بعيد عنها ، وبعضها سريع السير وبعضها بطيؤه :

وهي بأسرها تدور حول الشمس في مدارات بيضوية تختلف سعة وضيقاً ، وقرباً وبعداً من الشمس :

ج ـ التوابع : وهي أقمار تابعة للكواكب السيارة ، فيها الصغير الذي يبلغ قطره بضعة أميال ، وفيها الكبير المضاهي لقمرنا ، وفيها ما يفوقه ضخامة وكبرا .

وتتفاوت هذه التوابع عدداً ، حسب كوكبها المتبوع :

فللأرض قمر واحد ، وللمريخ ونبتون قمران ،

ولأورانوس خمسة أقمار ، ولزحل تسعة أقمار ،

وللمشتري اثنا عشر قمراً ،

وهذه الاقمار كلها تدور حول الكواكب السيارة كما تدور الكواكب حول الشمس :

د ـ النجيمات : وهي كواكب صغيرة تنوف على (٤٠٠) كوكب ، تدور حول الشمس بين مداري المريخ والمشتري .

هـ ـ المذنبات : وهي أجرام سديمية ذات ذنب مضيء ، تدور حول الشمس مجاورة لفلك البروج .

هذه هي عناصر الفلك وكلها تسبح في الفضاء حول

الشمس في مدارات بيضوية ، تختلف سعتها باختلاف أبعادها عن الشمس ، لا يفتر عملها ، ولا تحيـد عن مدارها ملايين السنين والأعوام .

ومن مدهشات الفلك أنه رغم ضخامته ووفرة عناصره ودقة نظامه ، لا يثبت في موضع واحـد ، فانه يسير بأسرته الكبيرة ماخراً عباب الفضـاء بسرعة (٧٢) الف كيلومتر في الساعة متجهاً نحو نجمة النسر الواقع .

ورغم سير الفلك السريع المتواصل ، فهو لا ينفك عن احتفاظه بهيئته وانسجامه ونظامه .

ترى . . من أنشأ الفلك ، وألف عناصره ، وشرع نظامه ؟ ومن أمسك أجرامه الهائلة عن السقوط . . ؟

ولئن عللوا تماسك الأجرام بقانون الجاذبية . فمن ابتدع الجاذبية ، وسن قانونها . . ؟

ومن سير الفلك باستمرار ، ونظام ثابتين ، لا يصيبه كلل ولا ينتابه عطب .

ولئن عزوا تماسك الاجرام الى الجاذبية ، فذلك لا يعلل ولا يحتم سيرها الدائب الرتيب في مداراتها الواسعة .

أفلا يدل السير المنظم على المسير الحكيم . . ؟

ومن الذي حصر الكواكب في مداراتها ؟ لا تحيد عنها ولا تزيغ ، ووقاها شر التصادم رغم كثرتها واختلاف سيرها

فطالما اصطدم المشاة والركبان وهم مبصرون ، فلم لا تصطدم الكواكب ، وهي عديمة البصر والشعور ؟

أليس ذلك دليلا على أن للفلك صانعاً ، أنشأه بارادته ، وسيره بحكمته ، كيف يشاء . . ؟

عالم الجو

والآن فلنتجه الى عالم الجو ، لنشاهد طرفاً من آياته وعبره وهي كثيرة ، نقتصر على لمحات منها :

(١) الهواء :

وهو سر الحياة ، وقوام الأحياء من انسان وحيوان ونبات وقد ألفه الله تعالى من عناصر ، أهمها : غاز الأوكسجين والآزوت (النتروجين) ، ولكل منهما خصائصه وآثاره :

فمن خصائص الأوكسجين : أنه يقوم بتنقية دم الانسان والحيوان ، وتزويدهما بالطاقة الحيوية ، لممارسة نشاطاتها المختلفة

كما يعمل الآزوت على تخفيف حدة الأوكسجين وسرعة احتراقه .

ومن دلائل القصد والتدبير في الهواء ، أن الاحياء تستهلك كميات هائلة من الأوكسجين ، تستنشقه نقياً وتلفظه كربوناً ساماً (ثاني اوكسيد الكاربون) فالبشر يستهلك منه سنوياً زهاء (١٦٠) الف مليون متر مكعب ، والحيوان والنبات يستهلكان أضعاف ذلك ، وهذا ما يسبب هبوط نسبة الأوكسجين في الجو واستحالته غازاً ساماً قاتلا . وقد تلافت العناية الآلهية هذا الخطر الماحق ، عن طريق النبات ، حيث جعلته يمتص - في النهار - ثاني اوكسيد الكاربون لصنع غذائه ، ويحيله أوكسجيناً نقياً ، وبذلك يتكيف الهواء وتتعادل عناصره مدى الحياة .

ومن خصائص الهواء انتشاره الهائل وضغطه ، فهو يملأ الخافقين ، ويضغط على الأجسام بما يعادل ثقله كيلوغراماً لكل سنتمتر مربع منها ، ونحن رغم ذلك لا نحس بثقله ولا نتبين لونه ورائحته .

ولهذا الضغط أهمية كبرى في حياة الانسان والحيوان ، فلولاه لانفجرت أوعيتهما الدموية وكان مصيرهما الهلاك .

لذلك كان تيار الهواء زاخراً جياشاً على الأرض ، وكلما تباعد الفضاء وأفرط في العلو تظائلت نسبة الهواء فيه ، وقلت كثافته مما يسبب اختناق الانسان هناك وانفجار أوعيته الدموية لقلة الأوكسجين وضعف الضغط .

ومن صفات الهواء : أنه رغم اتحاد عناصره متكيف الأطوار والحالات ، حار وبارد ، عاصف ورخاء ، عقيم ولاقح ، وذلك آية خضوعه لمسيطر حكيم ، يصرفه لصالح الخلق كيف يشاء .

وللهواء فوق ذلك آثار هامة في ازدهار الحياة وخدمة الأحياء فهو ينقل الأصوات الى المسامع ، ولولاه لخيم الصمت والسكون على الأرض واستحال التفاهم فيها ، وينقل الصور المذاعة نقل الاصوات ، فتظهر على أجهزة التلفزيون ناطقة متحركة .

وهكذا يحمل السحب والغيوم ، ويسيرها الى الآفاق البعيدة

ليعم خيرها سائر الأقطار .

ويقوم بوظائف خطيرة أخرى : كتلقيح الاشجار ، وتسيير السفن ، وإشعال النار ، وتبريد المياه ، وتجفيف الرطوبات ، ونحوها من المهام .

وذلك ما يشعر بوضوح أن له منشئاً ومسخراً يصرفه لعمران الأرض وصالح الأحياء فيها .

* * *

(٢) الليل والنهار :

وهما ناشئان من دوران الأرض حول محورها أمام الشمس فما استقبل الشمس منها كان نهاراً ، وما استدبرها كان ليلا :

وقد سيرهما الله عز وجل بحكمة تدبيره ، ودقة نظامه ماجعلهما مثاراً للدهشة والعبرة : فهما ضدان مختلفان ، ضياء وظلام ، لا يفتأان يتنازعان البقاء ، يقهر كل منهما ضده ، ثم يعود القاهر مقهوراً والمقهور قاهراً دواليك :

ثم انظر كيف يتداخل الليل والنهار ويسترق كل منهما طرفاً من نقيضه ، مما يسبب اختلافهما طولا وقصراً ، وزيادة ونقصا . حيث يتطاول النهار قليلا حتى يتساوى مع الليل طولا في ٢١ آذار فيحدث الاعتدال الربيعي آنذاك .

وهكذا يتزايد النهار حتى يبلغ غاية الطول ، والليل غاية

القصر في ٢٢ حزيران ، وهو يوم الأنقلاب الصيفي .

ثم يأخذ النهار بالتناقص التدريجي حتى يتساوى مع الليل في ٢٣ أيلول ، فيحدث حينذاك الاعتدال الخريفي .

وهكـذا يستمر النهار بالتناقص حتى يبلغ غاية القصر ، والليل أقصى الطول في ٢٢ كانون الأول ، وهو يوم الانقلاب الشتوي .

وعلى هذا النظام الرتيب يتداخل الليل والنهار ، ويتسابقان في حِلبة الزمن وتتجلى حكمة التدبير في مقادير الليل والنهار ، وشدة ملائمتها لحياة الأحيـاء وازدهارها ، حيث كان أقصى طولها في اكثر المسكون من الأرض خمس عشرة ساعة .

فلو طال النهار ، مائة ساعة مثلا ، لتعرضت الأحياء للخطر الماحق ، فالانسان تحفزه أطماعه على مواصلة أعماله . واستهلاك طاقاته الحيوية مما يسبب ارهاقه ومرضه .

والحيوان لا يكف عن الحركة ، ولا يستنيم للراحـة ، فيكون مصيره النفق والتلف .

والنبـات يحترق بطول وقـدة الشمس ، فيغـدو هشيماً تذره الرياح .

وهكذا لو طال الليل ، تلك المـدة ، لعاق الانسان عن ممارسة أعماله ، وكسب معاشه ، ومنع الحيوان من التقمم وطلب قوته ، فيموت سغباً وجوعا .

ويحرم النبات من عنصري الحرارة والضوء الضروريين لـه ، فيتلاشا تفسخاً وتعفناً . أفلا يـدل ذلك على المدبر ، الحكيم ، القدير ؟

• • •

(٣) الصحو والمطر :

وهما من آيات قدرة الله تعالى ، ولطفـه العميم : فالماء سر الحيـاة ، وقوام الأحياء ، وأتى لها بالماء ، وأغلب الارض مغمور بميـاه الأبحر ، وهي ملح أجاج ، لا تروي ظمأ ، ولا تجدي نفعا ؟ فحول الله عز وجـل مياهها المرة ـ بعملية التبخير والتصعيد ـ غيثاً هتوناً ، وماء عـذبا ، يروي الناس وسائر الاحياء .

ومن مظاهر حكمة التدبير : تعاقب الصحو والمطر ، وعدم استمرارهما في أغلب الأرض أمداً طويلا . فلو استمر المطر وقتاً مديدا ، لتشبع الجو بالرطوبة وأفرط البلل في الهـواء ، مما يوجب استرخاء الأبدان وانحلالها ، وتفسخ النبات وتلاشيه :

وانما تكاثرت الأمطار في المناطق الاستوائية لارتفاع درجات الحرارة فيها ، وحاجتها الملحة الى المطر المتواصل .

ولو دام الصحو طويلا لغـدا الجو جافاً محرقاً ، يلهب

الانسان ويحرق للنبات ويجفف الأنهار ، وبتعاقب المطر والصحو اعتدل الهواء وازدهرت حياة الأحياء .

وهكذا تجد حسن القصد والتدبير جلياً في هطول الغيث على الأرض ، حيث يتقاطر رذاذاً ليكون اكثر تغلغلا في الأرض وارواء لها ، ولو انهمر كالشلال الهادر لهدم المباني ودمر المزارع وأفسد الطرق .

فان قيل : « أوليس قد يكون في بعض السنين الضرر العظيم ، لشدة ما يقع منه ، أو برد فيه حطم الغلات . . . بلى قد يكون ذلك لفرط مافيه من صلاح الانسان ، وكفه عن المعاصي والتمادي فيها ، فتكون المصلحة فيما يصلح له من دينه أرجح مما عسى أن يرزى في ماله » (١) .

---

(١) توحيد المفضل (بتصرف) .

عالم الانسان

يعتبر الانسان أسما وأروع مظاهر القدرة الإلهية وإبداعها الفـذ ، لتميزه على سائر الخلق بخصائصه ومواهبه الجسمية والفكرية . تلك الخصائص والمواهب التي ما برح العلمـاء يستجلون غوامضها ، ويستكشفون أسرارها ولم يعرفوا منها الا النزر اليسير :

أتحسب أنك جـرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

واستقصاء بحث الانسان يتطلب موسوعة علمية ضخمة ، تعالج جوانب حياته ومختلف شؤنه ، لذلك أجدني مضطراً الى الاشارة والتلويح عن أبرز الآيات والعبر في عالمـه الفسيح . حسب العناوين التالية :

« أ » أطوار الجنين :

إن في خلق الأنسان وتطوره في عالم الجنين من نطفة دقيقة لا تدركها العين المجردة ، الى انسان كامل وسيم ، لبرهان ساطع على مبدعه القدير .

فالجنين يستهل حياته الأولى باقتران نطفة الرجل ببويضة الانثى ، وباقترانهما يدخل الجنين في طوره الأول ، ثم سرعان ما تنقسم البيضة الملقحة الى خليتين ، فاربع ، فثمان ، وهكذا . . تتكاثر حتى تغدو ملايين الخلايا لتكون المواد الأولية لصياغة الجنين وتكوينه ، ومنها يقطع الجنين مراحل التطور ، شهراً بعد

شهر ، حتى يتكامل خلقه ، ونموه .

فهو في الشهر الأول : ينمو ويكبر خمسين ضعفاً عن بدأ تكوينه ، يوم كان بيضة مخصبة كذرة الرمل .

وقد واكبت العناية الإلهية (الجنين) وأحاطته بصنوف الرعاية : فحصنته بكيس الأمنيون : وهو كيس يضم سائلا يغمر الجنين ليعطيه دفئاً ملائماً لايتغير باختلاف الجو ودرجات حرارته ، ويقيه في الوقت نفسه شر الصدمات التي قد تصيب الأم .

وعن طريق المشيمة يتغذى الجنين بما تزوده خلال الحبل السري من دم الام .

وفي نهاية الشهر الثاني : يصبح حجم الجنين كبيضة الدجاجة تقريباً .

وفي نهاية للشهر الثالث : يتخلق الجنين وتبدو عليه السمات البشرية .

وفي خلال الشهر الرابع : تتجلى به الفروق الجنسية .

وفي نهاية الشهر السادس : يظهر له الحاجبان والأهداب

وفي نهاية الشهر السابع : يصفو جلده اكثر من ذي قبل ويظهر عليه الشعر الدقيق .

وفي خلال الشهر التاسع : يكتمل نموه ويصبح مؤهلا لخروجه الى عالم النور :

وحينما يولد الطفل يبدأ بالتنفس واستنشاق الهواء ، اذ لو تنفس في بطن أمه لاختنق بسائل الكيس وهلك .

وأنى تأملت خلق الجنين ، وجدت آيات القدرة والابداع تطالعك في جميع خصائصه وجوانبه :

من ذلك أن الله عز وجل ابتدعه من نطفة دقيقة جداً ، بحيث لو جمعت نطف البشر الأحياء في العالم كله لوسعتهم جوزة صغيرة .

ثم أودع في كل نطفة سماتها البدنية وخصائصها الموروثة مما سبب اختلاف البشر صوراً وأجناساً ، نتيجة اختلاف صفاتهم الموروثة .

فكيف اختلف البشر وتمايزوا ، وكلهم من نطفة واحدة لا يتميز بعضها عن بعض ؟

وكيف احتشدت عوامل للوراثة في نطف الملايين من البشر ، فحفظت لكل انسان سماته الخاصة وخلاله الموروثة :

وكيف اتحدت خلايا الجنين في جوهرها ومادتها ، واختلفت في اطوارها ونتائجها ؟ . . . فاستحال بعضها لحماً وبعضها أعصاباً ، وبعضها أوردة وشرايين ، وغدى بعضها عيناً باصرة ، أو لساناً ناطقاً ، او اذناً واعية ، وكلها من مادة واحدة .

وكيف اتفقت عناصر أبدان البشر فكلهم من لحم ودم

وأعصاب ، ثم اختلفوا في ألوانهم وسماتهم ومواهبهم وطبائعهم فمنهم الأبيض والأسود ، والجميل والقبيح ، والذكي والبليد ، والكريم والبخيل .

وفي هذا الاختلاف غايات حكيمة : إذ لو تشابه الناس في سماتهم ، لعسر التمييز بينهم ، فيعطى أحدهم ما يستحقه الآخر ، ويؤخذ البرىء بجرم شبيهه الجاني ،

ولو اتفقوا في المواهب ، لتقلصت دوائر العلوم والفنون ، المتنوعة بتنوع المواهب ، وانحصرت في نطاق ضيق .

ولو اتفقوا في الطبـــاع لانعدمت فيهم مقاييس الفضـــل والكمال ، فلا يفضـــل الكريم على اللئيم ، ولا يتميز الشجاع عن الجبان .

فهل يستطيع عاقل أن يتجاهل جلالة القصد ، وسمو الحكمة في خلق الإنسان وإبداعه .

« ولقـــد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم جعلنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقـــة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » .

° ° °

« ٢ » حكمة للتصوير :

وهكذا تجلت حكمة الله عز وجل في صياغة الانسان ، وجمال تصويره ، اذ أودع فيه أسرار الحسن والكمال ، ولخص فيه جمال الكون وجاذبيته ما جعله آية فريدة ، ونموذجاً فذاً في جمال الطلعة ، وحسن الهيئة ، ورشاقة القد ، فلا يتخيل الفكر صورة أروع ولا أكمل منه .

فكان من حكمة صنع الله تعالى وإبداعه في الانسان :

أن منحه عينين ليبصر بهما مجالات الحياة ، ومظاهر الجمال والجلال فيها .

ووهبه اللسان ليكون أداة للتفاهم ، وترجماناً عن النفس .

وأعطاه الأذنين لسماع الكلام والأصوات :

ومنحه الأنف للتنفس واستشمام الروائح .

واكرمه باليدين ليجتلب بهما المنافع . ويستدفع بهما المضار

ومنحه الرجلين لتحملانه حيث شاء من رواح وغدو :

واعطاه جميع ما يحتاجه من صنوف الأعضاء والجوارح ، مصوراً كل عضو وجارحة تصويراً رائعاً دقيقا ، ملائماً لوظائفه وأعماله ، ثم ألف بينها تأليفاً متناسقا بديعا فغدا الانسان بذلك مظهراً رائعاً للجمال والكمال .

ترى لو نقص الانسان من كمال خلقه ، ألا يستوجب ذلك

نقصه وتشويهه ، كمن فقد بعض أعضائه وجوارحه ؟

ولو ازداد عضواً على أعضائه لسبب تشويهه وازعاجه ، كمن ازداد اصبعاً في يده أو رجله .

ولو تغيرت هندسة الأعضاء وتناسقها عن مواطنها الحكيمة لأصبحت باعثاً على سرعة تلفها وعسر الانتفاع بها ، كما لو جعلت العين في مؤخر الرأس أو في اليدين مثلاً .

ثم أنظر كيف ينمو الانسان نمواً محدوداً لا يتعداه رغم ما يتعاطاه من عوامل النمو من طعام وشراب .

وكيف تنمو أعضاؤه نمواً متناسقاً لا يشذ بعضها عن بعض ولو تخالفت . . لقبح الانسان ، كما لو نمت إحدى عينيه أو يديه أو رجليه عن ثانيتها نمواً كبيراً .

فمن تأمل ذلك تجلت له حكمة التصوير الإلهي في الانسان واعتقد بداهة بمصوره القدير الحكيم .

أرأيت لو شاهدت تمثالا رائعاً ألم توقن بأن له ناحتاً ماهراً وان لم تره ، أو تسمع به . فذلك في الانسان الناطق أجدر منه بالتمثال الجماد .

« فتبارك الله أحسن الخالقين »

• • •

« ٣ » سمو الابداع :

كثيراً ما يدهش الانسان وتبهره المكتشفات العلمية والأجهزة المخترعة كالتلفون والراديو والتلفزيون ونحو ذلك ، وهي جديرة بالدهشة والإعجاب ، لروعة ابتكارها ودقة تصميمها وسمو غاياتها .

بيد أن الإنسان لو فكر في نفسه وما تنطوي عليه من صنوف الأجهزة والجوارح ، وما تتصف به من سمو الابداع ودقة التصميم ، وعظمة الوظائف والاعمال ، لازداد دهشة وإعجاباً عن تلك المخترعات العلمية ، للفوارق الجسيمة بينهما :

فالاجهزة العلمية موسومة بالقصور الذاتي ، فهي لذلك مفتقرة الى من يديرها ويشرف على أعمالها ، كما هي عاجزة عن تكييف نفسها وتطوير وظائفها حسب مقتضيات الحال . إذ أنها لا تعي من أعمالها شيئاً .

أما الأجهزة البشرية فإنها تعمل تلقائياً ولذاتها غير محتاجة الى مسير ومشرف ، وهي قادرة على تطوير وظائفها حسب متطلبات الانسان ، فكل جهاز بشري يمارس عملين أو أعمالا مختلفة في آن واحد : عمله الفردي الخاص ، والعمل في زمرة الأجهزة الكثيرة الاخرى ، وكلها تعمل في تجاوب وتآزر مدهشين :

وفوق ذلك ، ليس في الأجهزة الصناعية ما يشعر بالراحة والتعب ، أو اللذة والألم ، أو السرور والحزن ، أو يدرك عمله ووظيفته ، أو يستطيع التحصن ضد الطواريء ، أو اصلاح ما يعطب منه ، ونحو ذلك مما تتمتع به أجهزة الانسان وأعضائه .

لذلك كانت الأجهزة البشرية مظهراً رائعاً من مظاهر القدرة الإلهية وابداعها المدهش ، تلك التي لوشاء الانسان محاكاتها لاستلزم ذلك مدينة واسعة الأرجاء تضم آلاف المصانع والمختبرات وتحوي آلاف المهندسين والخبراء ، وكلها يعمل ليلا ونهاراً لعجزوا عن محاكاتها وأداء وظائفها الدقيقة الرتيبة .

ولو حاولنا وصف وظائف الاعضاء ودراستها ، لاقتضانا ذلك موسوعة فسلجية ضخمة ينوء بها هذا الكتاب المجمل ، فجدير بهواة تلك الأبحاث أن يرجعوا الى ماكتبه الباحثون المختصون في هذا الحقل العلمي الواسع .

• • •

« ٤ » عظمة المواهب :

وان تعجب فعجب لما وهب الله تعالى الانسان من أنواع المواهب الفكرية والطاقات العقلية التي ميزه بها على خلقه وشرفه عليهم ما جعله نموذجاً فذاً وتجسيداً حياً لقدرته الحاذقة وابداعه الفذ .

وإنك لتدهش وأنت تستعرض تلك المواهب ، فلا تدري أيها أرفع شأناً وأبلغ أثراً في حيـاة الانسان : فلكل موهبة أثر بالغ ودور خطير في حياته :

ويحتل العقل مركزاً طليعاً بين تلك المواهب ، فهو نظام عقدها ، ورائدها الأمين وموجهها الحكيم :

ومن تلك المواهب : قدرة الانسان على التعلم ، واستيعاب العلوم . وفي الوقت الذي منح الله الانسان هذه القدرة ، وأطلعه على مختلف العلوم ، حجب عنه ماليس في طاقته أو صالحـه علمه وعرفانه ، كعلم الغيب ، وأسرار القلوب ، وأقدار الأعمار ونحو ذلك مما ينوء به وعي الانسان أو يسبب قلقه وازعاجه .

فلو علم الانسان أمـد حياته مثلا ، وكان قصير العمر ، استحالت حيـاته جحيماً مستعراً بالهموم والأحزان ، لترقبـه الموت والهلاك .

وان كان طويل العمر ، دفعه ذلك على الاغترار بالحياة والانهماك في الآثام ، مرجئاً طاعته وانابتـه الى الله تعالى الى آخر حياته ، مما يسبب شقائه وحرمانه من قرب المولى ورضاه .

ومن تلك المواهب : ملكة النطق وقدرة الانسان على التعبير عما يدور في خلده ويخطر على باله ، من مختلف المفاهيم والمعاني ولولاها لكان كالحيوان الأعجم ، لايستطيـع بياناً ولا يعرب عن قصد .

ومن تلك المواهب : قدرته على الكتابة ، وتسجيل مختلف العلوم والفنون ، وضبط التواريخ والمعاملات ، ولولاها لدرست العلوم وضاع تراثها الموروث ، وارتبكت حياة الناس ومعاملاتهم .

وهكذا تتوالى نعم الله عز وجل ومواهبه على الأنسان ، ظاهرة وباطنة . فكان من مواهبه الظاهرة ، الحواس الخمس : البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، التي لولاها لغدى الأنسان قاصراً أبكما في الحياة .

وكان من مواهبه الباطنة : المشاعر النفسية التي هي سر رقي الإنسان وازدهار حياته الفكرية ، وهي :

١ ـ الحس المشترك : وهو صحيفة النفس التي تنعكس عليها صور المحسوسات بالحواس الخمس ، فهو من الحواس بمنزلة الفلم من آلة التصوير ، والحواس منه بمثابة مراسلي الأنباء أزاء مرسلهم .

٢ ـ الخيال : وهو قوة تحفظ صور المطبوعات في الحس المشترك لتعرضها على النفس بعد غيابها عن الحواس ومحوها في الحس المشترك .

٣ ـ الوهم : وهو قوة تدرك المعاني الجزئية في المحسوسات كالمحبة في شخص والعداوة في آخر .

٤ ـ المتخيلة : وهي قوة تجسد المعاني في صور حسية ، وتؤلف بين الصور والمعاني .

فتأليف للصور : كتخيل إنسان نصفه حيوان ونصفه الآخر إنسان .

وتأليف المعاني : كتخيل الشجاعة والكرم مجتمعين في شخص .

وتأليف الصور والمعاني : كتخيل أسد متصف بالجبن ، وشاة متصفة بالجرأة والاقدام .

٥ ـ الحافظة : وهي قوة تختزن المعاني لتذكر بها الانسان عند استذكاره إياها .

وللحافظة أهمية كبرى في حياة الانسان ، فلولاها لارتبكت حياته « فلم يحفظ ماله وماعليه ، وما أخذ وما أعطى ، ومارأى وما سمع ، وما قال وما قيل له ، ولم يذكر من أحسن اليه ممن أساء اليه ، ومانفعه مما ضره ، ولا يحفظ علماً ولو درسه عمره ولا يعتقد ديناً ، ولا ينتفع بتجربة ، بل كان حقيقاً أن ينسلخ من الانسانية .

ولا تقل نعمة النسيان في الانسان عن نعمة الحفظ فيه ، فلولا النسيان لما سلا أحد عن مصيبة ، ولا مات له حقد ، ولا استمتع بشيء من متاع الدنيا ، ولا رجا غفلة من سلطان ، ولا فترة من حاسد .

أفلا ترى كيف جعل في الانسان الحفظ والنسيان ، وهما مختلفان متضادان وجعل له في كل منهما ضرب من

المصلحة » (١) .

أليست هذه المواهب العظيمة برهاناً صارخاً ودليلا ناطقا على قدرة الله وسمو عنايته ورعايته للانسان .

---

(١) توحيد المفضل (بتصرف) .

« نظرية دارون »

جاء دارون بنظرية التطور وتجاهل جميع الخصائص والمواهب الجسمية والفكرية التي ازدان بها الانسان وفاق بها سائر الخلق وجهـد دارون في محقها وتشويهها ، فلوث تاريخ الإنسان ، ومسخ كرامته ، واستنزله من عليـاء إنسانيتـه الى حضيض البهائم والقرود .

فكان لنظريته آثار سيئة في تضليل الجماهير الغربية وخدعها بزخارف الألفاظ العلمية ، مما زعزع عقائدهم ، ودمر أخلاقهم وطعنهم في صميم إنسانيتهم :

وشاء أعداء الإسلام أن يشيعوا تلك الضلالة في الأوساط الاسلامية لتضليل المسلمين وزجهم في متاهات الزيغ والالحاد .

لذلك أجدني ملزماً بتفنيـد تلك النظرية ، وجلاء زيفها باسلوب لامح خاطف يلائم وجازة هذه الرسالة :

كان من دعاة فكرة التطور (لامارك الفرنسي) الذي عزا نشأة الأحياء الى جرثومة ضئيلة واحدة ، حدثت تلقائياً وتولدت ذاتياً ، ثم سارت في مدارج التطور حتى استحالت الى أحياء

نباتية فحيوانية فانسان ، فهو في وجهة نظره منحدر من سلالة حيوان يشبه القرد .

ثم جاء دارون ، وشايعه على ذلك الرأي ، وخالفه في فكرة التـــولد الذاتي تفادياً من سخفها وسخرية العلماء منها ، وركز نظريته على الأركان التالية :

(١) تنازع البقاء (٢) الانتخاب الطبيعي
(٣) المطابقة (٤) الوراثة

وهذه النظرية ، فضلا عن مناقضتها للأديان السماوية وكتبها المقدسة ، ومخالفتها لاجماع العلماء والحكماء ، عبر القرون في مولد البشرية ونشأتها ، هي مناقضة لصميم العلم وقوانينه الأصيلة .

واليك توضيح ذلك :

أما تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي : فمغزاهما أن الأحياء تتنازع البقاء ، فتنتخب الطبيعة الأقوى والأكمل منها ، وتبيد الأضعف وتمحوه .

وهذا الرأى باطل . . من وجوه :

١ ـ اذا كان الانتخاب الطبيعي قانوناً ثابتاً ، فلماذا نجـــد الحشود الزاخرة من الحشرات الضئيلة كالنمل والبق والنرجس والبرغوث ونحوها من مختلف الأنواع . نجدها اليوم ثابتة الأشكال كما كانت عليه في أقـــدم العصور ، لم يطرأ عليها أي تطور وارتقـــاء ؟

وعلام نجد جميع الأحياء كبيرها وصغيرها ، قويها وضعيفها تعيش جنباً الى جنب ، ولم تلحظ البشرية عبر تأريخها نملة تطورت الى نحلة ، أو نحلة الى عصفور .

٢ ـ إن البشرية لم تبصر ولم تسمع في تاريخها المديد حيواناً مخضرماً متوسطاً بين القرد والانسان ، وهو الحلقة المفقودة في هذه الأرض .

٣ ـ استحالة التطور ، لاستلزامه وقتاً لا يتسع له عمر الحياة الأرضية ، فكم تستغرق الخلية من السنين لتقطع مراحل التطور من حالتها البدائية الأولى حتى نشأة الملايين من أصناف النباتات والحيوانات ، وحتى يبلغ التطور قمته وغايته في الانسان ؟

وهذا ما يجيب عنه (باتو) في كتابه (التحليل الرياضي لنظرية التطور) : « إن تعميم صفة من الصفات عن طريق الطفرة في سلالة من السلالات لا يمكن أن يستغرق أقل من مليون جيل من الأجيال المتتابعة » (١) .

٤ ـ لقد قرر الخبراء نتائج أبحاثهم ودراساتهم في أقدم الحفريات لأقدم الهياكل والرفاة الانسانيه : أنه ليس هناك أي فرق بينها وبين انسان اليوم .

قال العلامة الالماني (فوق باير) وهو من أقطاب الحفريين

---

(١) (الله يتجلى في عصر العلم) ص ٧٢ .

والبيولوجيين في كتابه (دحض المذهب الداروينى) :

« إن الرأي القائل بأن النـــوع الانساني متولد من القردة السبميانية هو بلا شك أدخـــل رأي في الجنون قاله رجل على تاريخ الانسان ، وجدير بأن ينقل الى أخلاقنا جميع الحماقات مطبوعة بطابع جديد ، يستحيل أن يقوم دليل على هذا الرأي المضحك من جهة المكتشفات الحفرية » (١) .

٥ ـ والأحياء فوق ذلك مهما تكاثرت وتشابهت فانه لابد من تغايرها وتمايز بعضها عن بعض ، واحتفاظ كل نوع بسماته الخاصة وأطاره المعين المحدود لدلالة الفوارق المميزة بينها :

فلو كان تنـوع الأحيـــاء ناجماً عن الانتخاب للطبيعي لتلاشت جميع السمات والأطر الفاصلة والمميزة بينها واستحالت الى نوع واحد لا يتميز بعضه عن بعض .

٦ ـ ومما يؤخذ على دارون أنه تجاهل أمرين بديهيين :

١ ـ أنكر القصد والغاية في خلق الأحياء وتدبيرها ، وعزا ذلك الى النواميس الطبيعيـة والنظم الآليـــة المجردة من الوعي والإدراك :

وهذه مكابرة صارخة ، إذ كيف ينكر عاقل مظاهر القصد والغاية في سائر الكائنات والأحياء ، وكلها ألسن ناطقة بحكمة بارئها وجلالة غايته وقصده مما أشرنا اليه في الأبحاث السالفة :

---

(١) على اطلال المذهب المادي لفريد وجدي ج ١ ص ١٠٣ .

٢ ـ وهكذا تجاهل دارون قوة الفطن والإلهام التي فطر عليها الحيوان واستطاع أن يصنع بها المدهشات ، رغم حرمانه من العقل والإدراك : كاعداد مساكنه ، وجلب أقواته ، وأساليب تكاثره ، وصيانة نوعه ، معللا ذلك بأنها عادات اقتبسها وراثة عن آبائه .

وفاته أن هذا التعليل يستلزم أفضلية الحيوان على الانسان وهو مناقض لنظرية التطور .

فلما ذا لم يرث الانسان العلوم والفنون عن أسلافه عفواً ، من غير ممارسة وتعلم .

وفاته كذلك أن بعض أصناف الحيوان يمارس أعماله الإلهامية وان لم ير أسلافه أو يراه أسلافه مما ستجده مفصلا في عالم الحيوان ومظاهر الفطن والإلهام فيه .

وأما المطابقة : وهي الركن الثالث لنظرية دارون .

ومغزاها حسب تفسيره . أن المحيط الذي يعيش فيه الحيوان وطرائق عيشه وأساليب طلبه فيه ، هي سبب تنوع الحيوانات واختلاف أشكالها .

فالأسد مثلا إنما صار مفترساً ذا أنياب حادة وبراثن قاطعة لتعيشه في محيط الغاب وممارسته حياة القنص والافتراس ، فلو عاش في محيط عشبي كما تعيش البهائم للعشبية لتلاشت أنيابه وبراثنه على مر العصور ، وغدى كسائر الحيوانات العشبية .

وهكذا زود البط بغشاء يتخلل أصابعه ، لحياته في محيط مائي ومزاولة السباحة ، كما طال عنق الزرافة لتغذيتها بأشجار الغاب الباسقة .

كيف يستسيغ العاقل هذه الفروض الوهمية ، التي يأباها العقل والوجدان ؟ ! .

فمن الثابت أنه ليس في قدرة المحيط وامكانه تكييف الحيوان وتغيير شيء من أعضائه ، أو تطويره الى حيوان آخر أسمى وأكمل منه ، وإن آثار المحيط محدودة لا تتجاوز الأعراض الطفيفة ، كاللون مثلا .

وكيف أثر المحيط وأساليب العيش فيه في تطوير الحيوان وتكييف أعضائه ولم يؤثر في تطوير الانسان ، وهو سيد الأحياء فتنشأ له على مر القرون ما حرمته ظروفه ، أو أتلفته الطوارىء من حاستي السمع أو البصر ، أو جارحه اليد أو الرجل ، أو تضاعف طاقاته السمعية أو البصرية ، بحيث يستطيع رؤية المرئيات النائية أو الدقيقة التي لا يتبينها الا بالمراصد المقربة والمجاهر المكبرة

وعلام لم تخلق له جناحين يطير بهما حيث شاء من أقطار الارض ، وأجواء الفضاء مما هو في أمس الحاجة اليه .

والبشرية بعد هذا كله لم تر ولم تسمع في تاريخها المديد شاتاً تطورت الى أسد ، أو أسداً تحول شاتاً ، فجميع أشكال الحيوان وهيئآته وأعضائه فطرية فيه ، لم تحدثها الأوساط المعاشية

وإنما هي من آيات حكمة الله عز وجل وجميل صنعه ، حيث أعد كل حيوان وزوده بمؤهلات العيش وضرورات حياته الخاصة

• • •

(٤) الوراثـــة :

وهي الركن الرابع لنظرية دارون :

ومغزاها -حسب نظريته : أن الابناء يرثون صفات آبائهـم الجسدية والمكتسبة ثم يورثونها الى أعقابهم ، فتنشأ بذلك سلالة تختلف عن الآباء شكلا وتتحد نوعاً ، كاختلاف الحـمار عن الحصان ، وكلاهما من فصيل واحد .

أما قصة الوراثة ، فهي قصة شهيرة معروفة من قديم الزمن قبل أن يعرفها علماء الغرب بآماد طويلة ، كما وقد أشار اليهـا أهل البيت عليهم السلام في نصوص عديدة :

منها مارواه الشيخ الصدوق رحمه الله ، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، قال :

« إن الله تبارك وتعالى اذا أراد أن يخلق خلقاً جمع كل صورة بينه وبين أبيه الى آدم ثم خلقه على صورة أحدهم ، فلا يقولن أحد هذا لا يشبهني ولا يشبه شيئاً من آبائي » (١) .

فلا ريب في قصة الوراثة ولكن للشيء الذى نرفضه وننكره

---

(١) البحار ج ١٤ ص ٢٧٤ عن علل الشرائع الطبعة الحديثة .

على دارون اقتصارها على دعم نظريته بأساليب فرضية ، وتفسيرها تفسيراً آلياً محضاً مجرداً من دلائل الارادة والقصد .

ويحق لنا أن نناقشه ونحاجه في النقاط التالية :

(١) لقد صرح المعنيون بأبحاث الوراثة بامتناع توريث الصفات المكتسبة وانتقالها من الآباء الى الأبناء والأحفاد ، فلم يعهد الناس أبناء طبيب أو مهندس أو فنان برعوا في الطب أو الهندسة أو الفن وراثة عن آبائهم دونما تعلم واكتساب . فجميع ما يتحلى به الاسلاف من ألوان الخصائص والمزايا الكسبية لا تنتقل وراثياً الى أعقابهم ، كما صرح بذلك الفزيولوجي الألماني الشهير (بلوجر) ، حيث قال : (قد بحثت من قرب جميع المشاهدات التي قيل أنها تثبت انتقال الصفات المكتسبة بالوراثة أي الصفات التي لا تشتق من التركيب الأولي للبيضة وللجرثومة المنوية ، بل الصفات التي اكتسبها الجسم بعد تكونه بتأثير الأسباب الخارجية ، فلم أجد واحدة من هذه المشاهدات تثبت انتقال هذه الصفات بالوراثة » (١) :

وقال الفزيولوجي الفرنسي الكبير (دوبرا ريموند) :

« اذا أردنا أن نكون مخلصين وجب علينا أن نعترف بأن وراثة الصفات المكتسبة قد اختلفت لمجرد تعليل الحوادث المراد تعليلها ، وانها هي نفسها من الافتراضات الغامضة » (٢) .

---

(١) (٢) على طلال المذهب المادي ج ١ ص ١٠٨ و ١٠٩ .

(٢) قد يزعم دارون أن انتقال تلك الصفات وتوارثها كان نتيجة للطفرات الفجائية الطارئة صدفة واتفاقاً على الحيوان وعن طريقها تناقلتها الأعقاب عن الأسلاف .

وهذه حجة واهية ، وزعم مردود ، لأن توارث الصفات لو كان بالصدفة الطارئة فلماذا دامت هذه الصدفة وعاش الإنسان محفوفاً بصنوف العناية والتدبير ، ولم تكيفه الصدف العابرة الى طور أسمى وأكمل مما هو عليه ، كأن تضاعف من طاقاته الجسمية والفكرية ، فتزود مثلا بجناحين يطير بهما في أقطار الارض وأجواء الفضاء ، أو تؤهله لادراك أسرار الغيب ، ومعرفة ألغاز الكون وخفاياه المعماة .

(٣) اذا كان الانسان ناشئاً من تطور القرد ، وتكامله وتحليه بخصائص الانسانية ومواهبها الجميلة الجليلة ، فلماذا شمل قانون التطور بعض القرود وأغفل البعض الآخر منها ، فهي على حالها لم يعروها أي تطور وارتقاء حتى اليوم ، وليس في القانون ما يشعر بالتبعيض ، كما ليس في القرود المشابهة للانسان فروق تستلزم هذا الخلاف .

(٤) إن نشأة الإنسان وتطوره من القرد يستلزم وجود حيوان متوسط بين القرد والانسان ، وهو الحلقة المفقودة في هذه الأرض ، فاين هو ؟ !

(٥) إن الطفرة لا تكون سبباً حتمياً في رقي الحيوان

وتطويره الى سوي أرقى وأكمل مما هو عليه ، إذ قد تسبب هـلاكه أو إضعافه أو تشويهه ، كما صرح بذلك الدكتور (وولتر ادوارد لامبرتس) استاذ الوراثة في جامعة كاليفورنيا حيث قال : (إن الدراسة الطويلة المتصلة لهـذه الطفرات في كثير من الكائنات تدل على أن الغالبيـة العظمى من الطفرات تكون من النوع المميت ، أما الانواع غير المميتـة منها فان التغييرات المصاحبة لها تكون من النوع الذي يؤدي الى التشويه أو على الأقل من النوع المتعادل الذي يحدث تأثيرات فسيولوجية تضعف من قوة الفرد .

فمن الصعب إذن أن تؤدي تجمع هذه الطفرات الوراثيـة الى التغيرات اللازمة لنشأة أنواع جديدة تعتبر اكثر تقدماً ورقياً من أسلافها) (١) .

(٦) والتشابه بعد هذا كله بين حيوانين لا يحتم انحدارهما من أصل واحـد ، فمشابهة البعوضة للفيـل ، والهر للأسد ، والحمار للحصان ، لا يستلزم اتحاد أصولها الا في الفروض الظنية .

فوجـود مـلامح الشبهة بين الانسان والقرد لا يوجب انبثاقهما من أصل واحد ، وانحدار الانسان من سلالة القرود ، للفوارق الكبيرة الجسمية والعقلية بينهما .

فمن الفوارق الجسدية ، اختلافهما في الدماغ (وقد أجمع الباحثون على أن معدل وزن الدماغ في أصناف الانسان العليـا

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ٧٢ .

يكون متوسطه في الرجال (١٣٦٠ غراماً) ، وفي النساء (١٢٠٠ غراما) . وأعلاه (١٦٧٥ غراماً) وأدناه (١٠٢٥ غراماً) ومانقص عن ذلك يدل على البلاهة واضطراب العقل والجسم معاً .

وأما في القردة وهي أكبر الحيوانات دماغاً (بالنسبة لجسمها) وخصوصاً أصنافها العليا الأكثر شبهاً بالانسان كالأورانج ، فمعدل الوزن المتوسط لأدمغتها (٣٦٠ غراماً) ، وأقصاه (٤٢٠ غراماً) (١) .

وهكذا يتسع بون الفوارق في الخصائص العقلية والفكرية المتجلية في الانسان ، حيث فاق سائر الأحياء وسادهم بمحاكماته العقلية ، وطاقاته الفكرية الضخمة ، كقدرته على هضم العلوم واستيعابها ، وانتاجه الفني الرائع ، وتفهمه واعتناقه للدين ، ورعاية مبادئه وأحكامه ، ونحو ذلك مما يعجز الحيوان عن وعيه وإدراكه

وهكذا يمتاز الانسان عن الحيوان بقوة النطق التي يستطيع بفضلها التفاهم والتعبير عما يدور في خلده من مختلف المعاني والمفاهيم التي لا يملكها الحيوان الأعجم .

الى كثير من الفوارق والخصائص التي ازدان بها الانسان وعطل منها الحيوان ، مما أشرت اليه آنفاً في (عظمة المواهب) من عالم الانسان :

هذه لمحات خاطفة من مناقشة دارون ، ومن شاء التوسع فليرجع الى الكتب المتخصصة والواسعة في رده .

* * *

(١) كتاب الوجود للسيد محمود ابو الفيض المتوفى ص : ٢٠٩

عالم الحيوان

وهكذا نجد عالم الحيوان عجيباً مدهشاً زاخراً بأصنافه العديدة وفصائلة الجمة التي هي أكثر من مليوني فصيلة ، كما يقدرها المعنيون بدراسة الحيوان .

ولو استعرضنا أوصاف الحيوان ، وطبائعه ، وأساليب معاشه وخصائصه المختلفة ، لاقتضانا بحثاً مسهباً يحرف الكتاب عن موضوعه ونهجه المرسوم .

بيد أني أقتصر على جانب واحد من خصائصه ، وهو جانب الفطنة والإلهام الذي حباه الله تعالى به ، ومكنه من ممارسة أعماله المدهشة رغم حرمانه من العقل والادراك .

واليك أمثلة مجملة من مظاهر الإلهام في نماذج مختلفة من الحيوان كالنمل ، والنحل ، والطير ، والسمك ، معروضة كما يلي :

(١) النمل :

وهو رغم ضئالته ، مضرب الأمثال في همته ونشاطه وروحه الاجتماعية ، وتعاطفه المثالي ، فترى أفراده يتعاونون على إعداد مساكنهم وجلب أقواتهم تعاون البشر في إنجاز مهماتهم .

وللنمل براعة فائقة في هندسة قراه وتصميم بيوته باسلوب يلائم حياته ، ينشأها على طبقات ومرافق يستغل بعضها لسكناه والآخر لمؤنته وطعامه .

وهو ذو فطنة مدهشة في طلب قوته ، وادخاره ، وصيانته من التعفن والفساد . يخرج للرعي أسراباً ، وحين تعثر احداهن على طعام أسرت به إلي أخدانها فيسرعن الى جلبه وحرزه ، فاذا نائت إحداهن بحملها سارع النمل لمئازرتها والتخفيف عنها .

ثم يعمد الى الحبوب المدخرة فيقسمها نصفين ، خشية عليها من التسوس والانبات ، الا الكسفرة يقسمها أرباعاً لأن كل نصف منها قابل للانبات .

واذا خشى أن يدب الفساد والعفن الى طعامه نشره على وجه الأرض صيانة له من ذلك .

ويضرب النمل أرفع مثل في التعاطف والتآزر والصفاء ، فقرية النمل بأسرها ومجموع سكانها تسعى جاهدة متكاتفة في إنجاز مهماتها وتحقيق صالحها العام .

فمنهم المعنيون بهندسة القرية وإنشائها ، ومنهم حراس القرية وحماتها من غزو النمال الأخرى ، ومنهم المكلفون بتربية أولاد النمل ، ومنهم جلابة الطعام وخزنه وكلها يعمل فى تكافل وتعاطف مدهشين .

قال أحد الباحثين في الحيوان : « رأيت إحدى نمالي مكسورة المرجل واخواتها يطعمنها ويعتنين بها ، وظللت أشهد منهن هذا المعروف مدة ثلاثة أشهر بطولها » (١) .

---

(١) محاسن الطبيعة ، اللورد افبري .

وأعجب من ذلك الوئام والسلام اللذان يعيشهما النمـــل ، فبرغم وفرة النمل وازدحامه في قريته التي قد تبلغ (٥٠٠,٠٠٠) الف نملة لا يحدث بينهـــا تحاسد وخصام وكلهن ينعمن بحياة سلمية وادعة لم تحققها البشرية ولا تحلم بها ، وفي ذلك عبرة للانسان الذي لا ينفك عن محاربة اخوانه البشر والكيد لهم .

وقـــد صرح علماء الحيوان : أن للنمل - كما لغيره من أصناف الحيوان - لغة يتفاهم بها أفراده ، ولولا ذلك لما استطاع الاسهام بأعماله الاشتراكية ونشاطه الاجتماعي :

ومواطن العبرة من هـــذا البحث ، كيف استطاع النمل إنجاز أعماله الدقيقة ، ذات الغاية الهادفة وهو خلو من العقـــل والإدراك ؟ !

أليس ذلك دليلا على أن للنمل خالقاً وهبه الفطنة والالهام لتنظيم حياته وتدبير شأنه . . . ؟

(٢) النحل :

وللنحل من الفطنة والالهام مايفوق النمـــل ، فمن مظاهر فطنته تصميم خلاياه باسلوب رائع يعجز المهندسون عن محاكاته الا باستخدام الأدوات والآلات ، حيث أنشأ ثقوبها مسدسة الأضلاع ، وهي : الشكل الفريد الذي لا تحدث بينهـــا فرج مهملة ، لا تجدي نفعاً .

وكون الخليـــة من مرافق عـديـدة وزعها بين رعاياه ، فلملكة النحل مرفقها الخاص ، ولذكور النحل وعماله كذلك وأعد للعسل مخزناً ملائماً له .

ومن خصائص النحل وصفاتها الاجتماعية أن أسرته مؤلفة من الملكة ، وهي أمهن وسيدتهن المطاعة ، ورعاياها هم أبنائها المخلصون الذين يبادلونها الحب ، ويسعون جهدهم في خدمتها واسعادها .

وهذه الأسرة رغم عددها الكبير الذي قد يبلغ (مائة الف نحلة) تحيا حياة اجتماعية : فمنهم من يتولى إعداد الخلية وبنائها ومنهم من يعني بتربية أفراخ النحل ، ومنهم حراس الخليـــة والمدافعون عنها ، ومنهم المتطوع بانتاج العسل ، وكلها تسير على نظام اجتماعي سديد ، قوامه التآزر والتعاضد .

ومن غرائب النحل : أنه لا تجتمع ملكتان منهن في خلية واحدة ، فاذا اجتمعتا تنازعتا ملك الخلية وسلطانها ، حتى تقضي إحـــداهن على الأخرى ، أو تنزح بثلة من اتباعها الى موطن آخر لتنشأ بدورها خليـــة جديدة ، وبذلك تتكاثر الخـلايا ، ويزداد نتاج العسل .

وما أروع خروج النحل في طلب المرعي ، إذ يخرج زمراً وأسراباً يتنقـــل بين أكمام الورد وأفنان الشجر ، مستشيراً من رحيقها مالذ له وطاب ، ثم يعود أدراجه الى الخلية ، بيد أنه

لا يدخلها حتى تتحسسه الملكة ، حرصاً على سلامة النحل وطيب مرعاه ، فمن أحست بقذارة رعيه وخبثه طردته عن الخلية ، وربما قتلته ، صيانة للعسل من التسمم والفساد .

ونحن اذا استعرضنا أعمال النحل وجدناها عجيبة مدهشة رغم قصوره وحرمانه من الوعي والادراك ، وذلك ما يؤكد أن فطنة النحل ليست ذاتية فيه ، وإنما هي الهام من المبدع الأعظم الذي خلق النحل وسخره لصالح الناس .

(٣) الطير :

وهكذا تتجلى آيات القصد والتدبير في خلق الطائر وتيسيره لما خلق له ، فانه لما كان من شأنه التحليق في الجو .

خلق فاره الجسم مدمج الأعضاء ، ذا قادمتين عوضاً عن أربع ، ومخرج واحد للذرق والبول بدلا من اثنين منفصلين ، وخلق ذا جؤجؤ ليستعين به على اختراق الهواء ، واكتسى بدنه الريش ليتخلله الهواء ويعينه على الطيران ، وحيث كان يقتات الحبوب خلق ذا منقار صلب يلتقط به طعمه .

تأمل كيف يحتضن الطائر بيضه ، ويعني بأفراخه عناية مدهشة ، تراه جاثماً على بيضه أياماً عديدة ، حتى اذا انفلق البيض عن أفراخه طفق يرعاها برأفة بالغة وحنان جم ، يغذيها تارة ويحتضنها أخرى ، باذلا في سبيل ذلك عناء شديداً .

فمن الذي قسر الطير على احتضان بيضـــه ، وهو الطائر المتحرر الذي لا يعرف القسر والتقيد . . ؟ ومن كلفه بالتقاط الحب ولفظه - بعد ازدراده - في أفواه أفراخه تغذية لها . . ؟ ولماذا احتمل هذه المعاناة وهو خلو من الوعي والشعور ، ولا يأمل في أفراخه ما يأمله الانسان في أولاده من المكافأة . . ؟

ومن عجائب الطير هجرة بعض أنواعـــه الى الأصقاع النائية ثم عودته الى موطنه الأول ، قاطعاً في رحلتـــه آلاف الأميال . من ذلك ما حكته مجلة المختار في عددها (٣٥) لسنة ١٩٤٦ : « إن سبعة من السنونو أخـذت في (برمن) بالمانية ، ولـّون ريشها بـدهان أحمـر يميزها ، ثم حملت بالطائرة الى (كرويدن) بانجلترا ، ثم أطلق سراحها ، وفي بكرة اليوم التالي عادت خمسة منها سالمة الى أوكارها في (برمن) » :

أليست هذه دلائل الفطنة والالهام ، تشهد بوجود الملهم الأعظم الذي خلق الطير وزوده بتلك القوى الالهامية .

(٤) السمك :

وهكذا تجد آيات القصد والتدبير واضحة في خلق السمك وملائمته لمحيطه :

فحيث كان مقره الماء خـــلا من القوائم ، وعوض عنها بزعانف وأجنحة صلاب ، يستخدمها في السباحة كما يستخدم

الملاح المجاذيف في تسيير السفينة وشقها عباب الماء .

واكتسى درعاً من القشور ليقيه أذى الصخور والعوائق وخلا من المرئة - لانتفاء جدواها في الماء - وعوض عنها بغلاصم وخياشيم يتنفس بها في أعماق الماء ، حيث يعبه بفمه ويلفظه من غلاصمه مستخلصاً بذلك الهواء المذاب بالماء .

وجهز بكيس هوائي يعينه على الغوص في أعماق البحار ويضبط توازنه في طبقات المياه ، وهو يتكيف آلياً حسب حاجة السمك ، فحينما يغور في الماء يتضائل الكيس ليسهل انحداره الى أعماقه ، ومتى اتجه الى سطح الماء تضخم ذلك الكيس ليمهد صعوده وطفوه عليه .

وللسمك حاسة مدهشة ، يدرك بها العوائق والصخور ويتفادى الاصطدام بها : ذلك أنه زود بأعضاء حساسة مرهفة تحس بتغير الماء واختلاف ضغطه بمروره على بعض العوائق ، فيتحاشاها وينحرف عنها .

ولما كان السمك ضعيف البصر ، لا يرى طعمه في لجج الماء وغمراته ، منح شامة قوية يستشم بها غذائه ويهتدي اليه من بعد شاسع .

ومن مظاهر التدبير في السمك : وفرة نسله ، فانه لما كان عرضة للتلف والنفاد ، لافتراس كباره صغاره ، واصطياد الطير قسما منه ، واستهلاك الإنسان كميات كبيرة منه - كان من

الحكمة أن يكون بهذه الوفرة ليفي بأقوات الانسان والحيوان .

وفي ذلك دلالة ساطعة بحسن تدبير الخالق وسمو حكمته وقصـــده :

ويشاء الماديون أن يتجاهلوا ويتعاموا عن فطنـــة الحيوان والهامه ، زاعمين أن أعماله ونشاطاته ليست وليدة الإلهـــام ، وإنما هي من نتائج تجاربه المتوالية ، أو بواعث حاجاته الملحة أو ثمرات تقليده ومحاكاته لعادات أسلافه .

وهو تخرص واهم : كيف يقـــدر الحيوان على استقراء التجارب ، وضبط وقائعها ، واستنباط نتائجها وهو عديم للوعي ؟

وكيف تبعثه الحاجـــة على ممارسة أعماله ، وهو يمارسها قبل احتياجه اليها ؟

فالنمل مثـــلا يدخر في للصيف مؤنة الشتاء ، ويجهد في صيانة قوته لمستقبله في وقت هو مستغن عنه .

ولو كانت الحاجة - كما يزعمون - باعثة على أعماله فعلام يشهم في أعمال لا تخص فرده ، وإنما تعم نوعه وكافة أفراده ؟

وهكـذا ينتقض زعم محاكاتها لآبائها بنمط من الحيوان يمارس أعماله الإلهامية ، وهو لم ير آباءه ولم يره آبائه :

ولو جازت المحاكاة على الحيوان ، فلم لا يستطيع الانسان الجاهـــل محاكاة آبائه العلماء والفنيين ومجاراتهم في نشاطاتهم العلمية والفنية . . ؟ وكيف يحقق الحيوان مايعجز عنه الانسان ؟ :

واليك مثلا واحداً من أمثلة كثيرة ، يعرب عن فطنة الحيوان وممارسة أعماله رغم حرمانه من رؤية أسلافه :

« من تلك المشاهدات ، أن الحشرات المسماة (نيكر وفور) تموت بعد أن تبيض مباشرة ، أي أنها لا ترى لها ذرية أبداً وليس فرد من أفرادها رأى له أماً أو ولداً . ولكن من العجيب أن هذه الحيوانات قبل أن تبيض ، تعني غاية العناية بجمع جثث حيوانية تضعها بجانب البيض لتصلح غذاء لصغارها متى خرجت الا يدل هذا على الإلهام الإلهي) (١) .

(١) فريد وجدي : على اطلال المذهب المادي ج ١ ص ١٢٣ .

عالم النبات

وهكذا تأخذك الدهشة والاعجاب وأنت تستعرض عالم النبات ، وتستجلي صفاته وخصائصه الدالة على مبدعه العظيم :

وفيما يلي عرض خاطف وجيز لأطوار الشجر وعناصره وخصائصه وآثاره حسب العناوين التالية :

« ١ » البـــذرة :

وهي في الأغلب : حبـة صغيرة متى استنبت في الارض انفلق أعلاها عن سويق دقيق ، وانشق أسفلها عن جذير ضئيل وتقطع البذرة مراحِل التطور لتغدو بعد فترة من الزمن شجرة باسقة ذات أغصان وارقة وأزهار عطرة وثمار شهية .

وقد أمدت عناية الله تعالى (البـذرة) بمـوارد الغذاء ، ومقومات النمو والازدهار ، فهي في طورهـا الأول وحيـنما يستيقض جنينها ، يتغذى بمحتوى البذرة حتى إذا ترعرع قليلا واستنفذ غذائه منها ، استمدت البذرة تموينها من التربة والجو كما سنوضحه في الأبحاث التالية .

« ٢ » الجذور :

وهي رغم دقتها وطراوتها تمثل أدواراً مدهشـــه : فهي تركز الأشجار وتمسكها عن السقوط كما تمسك الأطناب عمـد الخيمة ولولاها لانقلع الشجر في الريح العاصف ، وتزودها بالغذاء

بامتصاصها المياه والاملاح من الأرض وتوصلها بعروق دقيقة الى عناصر الشجر وفروعه المختلفة ، وقد فاقت الجذور بعملها هذا عباقرة المحللين والكيمياويين حيث تعمد الى تحليل التربة واستخلاص العناصر الغذائية للشجر ونبذ غيرها من المواد ، تعمل ذلك تلقائياً من غير آلة وأداة ، وذلك ما يقصر عنه أمهر المحللين والكيمياويين :

ومن خصائص الجذور أنها مطبوعة على الغور في الارض فلو رفعتها نحو الفضاء سرعان ما انعطفت اليها الأداء وظائفها المقررة

كما أنها لا يصدها عائق عن سيرها وتغلغلها في حنايا الارض فهي تتنكب العوائق والصخور ما وسعها ذلك ، فان لم تجد بداً من اختراقها أفرزت عليها أحماضاً تذيبها وتيسر نفاذها فيها ، لذلك تجدها رغم ضعفها وطراوتها تثقب الصخور الصلدة التي يعجز عن ثقبها السنان النافذ .

وذلك برهان على عناية الله تعالى ورعايته لسائر الكائنات والاحياء حتى الجذور الغائرة في التراب .

« ٣ » الساق :

وهو عماد الشجر ومظهر جماله ، وملاك نموه وازدهاره : حيث ينقل المياه والاملاح من جذور الشجر الى فروعه المتشعبة وعناصره المختلفة ، كما يوزع المواد الغذائية المصنوعة في أوراق

الشجر الى مختلف أجزائه وفروعه .

ويختلف الساق دقة وضخامة وانتصاباً في الهواء وامتداداً على الأرض باختلاف نوع الشجر وإنتاجه ، فما كان ثمره ثقيلا كالرقي والبطيخ والقرع ، جعل ممتداً على الأرض ، إذ لو كان منتصباً لتقصف من حمله ، فتراه منبسطاً تحف به ثماره انبساط الهرة وحولها أجرائها ترتضع منها .

وذلك من أيات القصد والتدبير في عالم النبات .

« ٤ » الورق :

ثم ارمق بطرفك أوراق الشجر تجدها متحلية بلونها الجميل وهيئتها البديعة ونسجها الرائع ، ولها وظائف هامة ، نجملها في النقاط التالية :

(أ) التركيب الضوئي :

وهو عملية يستخلص النبات بها غذائه : ذلك أن النبات يستمد غذائه من الأرض والجو ، فيأخذ من الأرض المياه والأملاح ، ومن الجو ثاني أوكسيد الكاربون ، وتجتمع هذه العناصر في أطار الورق لتجري عليها تفاعلات كيمياوية ، تحيلها الى مواد غذائية للنبات ، كالسكر والنشاء . وسميت هذه العملية بالتركيب الضوئي ، لتوقفها على ضوء الشمس .

(ب) النتح :

وهو عملية تبخير المياه الزائدة عن حاجة الأشجار والنبات بواسطة ثغور الورق ، حيث تمتص أضعاف حاجتها من الماء مما يسبب خفة أملاحها ، فيعمل على تركيزها بتبخير الزائد منه .

وللنتح أهمية كبرى في تلطيف الجو وعذوبة هوائه ، فقد تنتح شجرة واحدة زهاء خمسمائة لتر من الماء . وينتح رطل من النبات أضعاف وزنه خمسمائة مرة طيلة حياته .

والجهاز الثغري من روائع القدرة وآيات الابداع ، فهو - كما يتراءى في المجهر - مؤلف من فتحة تسمى (الثغر) وعلى جانبيه خليتان تعملان على تنظيم فتحه واغلاقه تبعاً لحالات النتح ومقاديره المنوطة بحالات الجو ، فهو يكثر بجفافه وارتفاع حرارته ، ويقل بهبوطها .

وحينما تنشط عملية النتح ، تفتح الخلايا ثغور الورق للتبخير ومتى ضعفت أقفلت ثغورها لمنعه .

(ج) التنفس :

النبات يتنفس تنفس الحيوان ، يستنشق الأوكسجين ويلفظه ثاني أوكسيد الكاربون :

وفي حالة التركيب الضوئي يمتص ثاني أوكسيد الكاربون ويلفظه أوكسجيناً نقياً ، نقيض عمله الأول .

وقد تجلت حكمة الله وتدبيره في تكييف الهواء ، وتعادل عنصريه ، حيث تستهلك الأحياء أقداراً هائلة من الأوكسجين وذلك ما يسبب نفاد عنصره في الجو ، وصيرورته غازاً خانقاً وقد تلافت العناية الإلهية هـذا الخطر عن طريق النبات ، إذ جعلته يمتص (ثاني أوكسيد الكاربون) لغذائه ويحيله ثانية الى الجو أوكسجيناً نقيا .

وهكذا لو دأب الشجر على امتصاص ثاني أوكسيد الكاربون لنفد عنصره الضروري في الهواء ، بيد أن التدبير الإلهي عادله وعوض عنه بما تلفظه أنفاس الأحياء .

فمن تأمل وظائف الأوراق ، وجدها مختبرات دقيقة مدهشة تعج بآيات الصانع حكيم .

ورق الغصون اذا نظرت دفاتر مشحونة بأدلة التوحيد

(د) الأزهار :

ولو نظرت أفنان الشجر وجدتها متوجة بالأزهار اليانعة ، ذات التركيب البديع ، والألوان المزاهية ، والروائح العطرة ، التي تنعش النفس وتهز الوجدان .

ومن عجيب تدبير الأزهار : أساليب تلاقحها وتكاثرها

فمنها : ما يضم اعضاء التذكير والتأنيث ، ويجري تلاقحها ذاتياً في نفس الزهرة ، ومنها : ما يلقحه الهواء بما يحمله من ذرات اللقاح ومنها : ما تلقحه الحشرات .

فالأزهار الملقحة بالهواء عاطلة من الجمال والشذى والأري لاستغنائها عن اجتذاب الحشرات وتشويقها بهذه المغريات .

والأزهار الملقحة بالحشرات مزدانة بالألوان الزاهية ، والأرج الفياح الباعثين على ارتيادها وتلقيحها .

وهكذا تتفتح الأزهار وتنكمش بحساب وتقدير .

فالأزهار التي تلقحها حشرات النهار ، تجدها مفترة ضاحكة خلال النهار ، فاذا خيم الليل انكمشت وانطوت على نفسها حتى الصباح .

والأزهار الملقحة بحشرات الليل ، تراها ذاوية خلال النهار فاذا دجى الليل تفتحت أكمامها وسطع أرجهـــا اجتذاباً لتلك الحشرات وتجد الأزهار الملقحة بالهواء مفترة ضاحكة ليل نهار لتلقحها به في كل وقت ، وذلك برهان حسي على قدرة الصانع وحكمة قصده وتدبيره .

(هـ) الثمار :

وهكذا تجد آيات التقدير والتدبير جلية في الثمار ، والفواكه بألوانها الزاهية وطعومها الشهية ومنافعها الجمة .

فانظر كيف تطورت (البذرة) من خلية دقيقة الى شجرة باسقة مزدانة بالأزهار والثمار :

وكيف اتحدت عناصر البـــذرة ، واختلفت في نتائجها وأطوارها ، فتفرع منها الساق والورق ، والزهر والثمر ، وكلها من مادة واحدة .

وكيف استحالت الأملاح الأرضية التي امتصها الشجر الى أجزاء نباتية ذات حياة ونمو .

وكيف انبثقت الأزهار والثمار من أخشاب الشجر وعناصره المجردة من كل طعم وعطر .

وتأمل بعد هذا عامة الاشجار والنباتات ، كيف اتحدت مقومات نموها وازدهارها ، واختلفت في طبائعها وخصائصها .

فمنها : المسخن والمبرد ، ومنها : المنبه والمنوم ، والمحزن والمفرح والسام والشافي . وكلها تعيش في صعيد واحـد ، وجو واحد وماء واحـــد . أليس ذلك برهاناً ساطعاً على حكمة القصـــد والتدبير في عالم النبات ؟

وقد يعزوا الماديون اختلاف الأشجار الى اختلاف بذورها وهو تعليل لا يبطل وجه الحكمة والتدبير في عالم النبات .

فقد رأينا الأشجار ذات النوع الواحد ، قـد اختلفت في في الطعم ، وتفاضلت في الأكل ، فالرمان فيه الحلو والحامض والجيد والرديء وكله نوع واحد .

وفضلا عن ذلك ، من للذي أوجـد البذور ، وصيرها أنواعاً مختلفة ، وكلها من مادة واحدة وعناصر متفقة . . . ؟

وذلك دليل على وجود الخالق وحكمة ايجاده وتدبيره .

« وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحـد ، ونفضل بعضه على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » الرعد - ٤ .

البراهين القرآنية

على وجود الله تعالى

لقد اشتمل القرآن الكريم على تبيان كل شيء ، وحوى أسرار العلوم والمعارف وآيات للتشريع والتوجيه ماجعله الكتاب الخالد والمعجزة الخالدة عبر الحياة :

فكان من بدائعه آياته الباهرة وبراهينه الساطعة على وجود الله تعالى ، تلك الآيات والبراهين التي تعتبر بحق المثل الأعلى في سمو المنطق وقوة الحجة وشدة الاقناع ، لأنها تخاطب العقل وتحكم الوجدان ، وتساير الفطر الانسانية السليمة .

ولئن أقنعت أناساً وعجزت عن آخرين فلا ينافي ذلك قوة اقناعها وسطوع حججها ، حيث أنها تقنع من يلتمس الحق ، ويدين بشرعة العقل والوجدان .

أما المعاندون والمكابرون فلا يقنعهم سائر البراهين ، ولو كانت حسية عينية . لأنهم ينظرون اليها من وراء حجاب ، فتتلاشى أمامهم الحقائق وتخفى عليهم ، وهي أجلى ما تكون وضوحاً واشراقاً .

ولقد أحاطت الآيات القرآنية بأهم البراهين التي استدل بها الحكماء على وجود الله تعالى ، كبرهان الخلق ، وبرهان للغاية ، وبرهان الاخلاق ، وغيرها من البراهين العديدة المختلفة .

واليك نموذجاً من تلك الآيات الكريمة :

قال تعالى : « إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ،

وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » . البقرة - ١٦٤ .

وقال تعالى : « هو الذي جعل الشمس ضياء ، والقمر نوراً ، وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ماخلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » . يونس - ٥ .

وقال تعالى : « والشمس تجري لمستقر لهـا ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » . يس ٣٨ - ٤٠ .

وقال تعالى : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمـدا الى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون . ومن رحمته جعـل الليل والنهار لتسكنوا فيـه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » القصص - ٧١ - ٧٣ .

وقال تعالى : « أفرأيتم الماء الذي تشربون ، ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشـاء جعلناه أجاجـاً فلولا تشكرون » . الواقعة ٦٨ - ٧٠ .

وقال تعالى : « وهو الذي مرج البحرين ، هـذا عذب

فرات ، وهـذا ملح أجاج ، وجعـل بينهما برزخاً وحجراً محجورا » . الفرقان ـ ٥٣ .

وقال تعالى : ولقـد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » المؤمنون ١٢ ـ ١٤

وقال تعالى : « وإن لكم في الأنعـام لعبرة ، نسقيكم مما في بطونها ، من بين فرث ودم ، لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك الى النحل . أن اتخذي من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات ، فاسلكي سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه ، فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » . النحل . ٦٦ ـ ٦٩ .

وقال تعالى : « وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » . الرعد ـ ٤٠ .

وقال تعالى : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ، وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ،

وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره ، وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ، سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » . يس - ٣٤ - ٣٦

الى غير ذلك من الآيات الجمة ، التي يزخر بها القرآن الكريم .

. . .

براهين اهل البيت (ع)

في اثبات الصانع عز وجل

لقد كان أهل البيت (ع) المثل الأعلى في الجهاد والفداء في سبيل العقيدة الاسلامية ، والدعوة الى الله تعالى ، ماجعلهم قادة الرأي ، ومشاعل النور ، وهداة الأمم . وأدلائها المخلصين .

وقد حمل التاريخ الينا صوراً رائعة من بطولاتهم ، وكفاحهم الحربي والأدبي في تعزيز الاسلام ، ونشر مبادئه الخالدة :

فمن صور كفاحهم الأدبي ، مناظراتهم في دحض شبهات الملحدين ، وتفنيـــد مزاعمهم ، والاهتمام بانقاذهم من الزيغ والإلحاد ما وسعهم ذلك .

وقـد كشفت تلك المناظرات عن رصيد علمي ضخم ، وكنوز فكرية جبارة ، لا يزال المسلمون ينهلون من ينابيعها الثرية ، ويستوحون مفاهيمها الأصيلـــة ، مايزودهم حقـائق العقيدة والايمان .

وتتسم براهينهم في مضمار الجـدل بسطوع الحجة ، وقوة الاقناع ، وحكمة الارشاد والتوجيه ، فاذا بناشد الحق مبهور بشعاعها ، مأخوذ بأسرها .

وقد حمل الرواة الينا طرفاً ممتعاً من تلك البراهين ، في إفهام الماديين وهدايتهم الى الإيمان . فمنهم من استجاب للحق والهدى ومنهم من آثر المكابرة والاصرار على الغي والضلال .

واليك طرفاً من تلك البراهين :

قال الصادق (ع) : «أول العبر والأدلة على الباري جل

قدسه بهيئة هذا العالم ، وتأليف أجزائه ، ونظمها على ماهي عليه فانك إذا تأملت العالم بفكرك ، وخبرته بعقلك ، وجدته كالبيت المبني المعد ، فيه جميع ما يحتاج اليه عباده ، فالسماء مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالبساط ، والنجوم مضيئة منضوده كالمصابيح ، والجواهر مخزونة كالذخائر ، وكل شيء فيها لشأنه معد ، والإنسان كالمملك ذلك البيت ، والمخول جميع ما فيه ، وضروب النبات مهيأة لمآربه ، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه ، ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملايمة ، وان الخالق له هو الذي ألفه ونظمه ، بعضاً على بعض ، جل قدسه وتعالى جده ، ولا إله غيره »

« فكر في هذه الاشياء التي نراها موجودة معدة في العالم من مآربهم ، فالتراب للبناء ، والحديد للصناعات ، والخشب للسفن وغيرها ، والحجارة للأرحاء وغيرها ، والنحاس للأواني والذهب والفضة للمعاملة والذخيرة ، والحبوب للغذاء ، والثمار للتفكه ، واللحم للمآكل ، والطيب للتلذذ ، والأدوية للتصحيح والدواب للحمولة والحطب للتوقد ، والرماد للكلس ، والزبل للأرض ، وكم عسى أن يحصي المحصي من هذا وأشباهه .

أرأيت لو أن داخلا دخل داراً فنظر إلى خزائن مملوءة من كل ما يحتاج اليه الناس ، ورأى كلما فيها مجموعاً معداً لأسباب معروفة ، أكان يتوهم أن مثل هذا يكون بالإهمال ومن

غير عمـــد » (١) .

وقال عبد الله للديصاني : يا جعفر بن محمد ، دلني على معبودي : فقال له أبو عبد الله ، إجلس ، فاذا غلام له صغير في كفه بيضة يلعب بها ، فقال أبو عبد الله : يا غـلام ناولـني البيضة ، فناوله إياها ، فقال أبو عبد الله : يا ديصاني ، هذا حصن مكنون ، له جلد غليظ ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق ، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مايعة ، وفضة ذائبة ، فلا الذهبة المايعة تختلط بالفضة الذائبة ، ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المايعة ، فهي على حالها ، لم يخرج منها خارج مصلـح فيخبر عن صلاحها ، ولا دخل فيها (داخل) مفسد فيخبر عن فسادها ، لايدرى أللذكر خلقت أم للأنثى ، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس ، أترى لها مدبراً .

فاطرق ملياً ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنك امام ، وحجة من الله على خلقه ، وأنا تائب مما كنت فيـه (٢) .

ودخل رجل من الزنادقة على أبي الحسن الرضا (ع) ، وعنده جماعة ، فقال أبو الحسن : أيهـا الرجل أرأيت إن كان القول قولـكم وليس هو كما تقولون ، ألسنا وإياكم شرعاً سواء

---

(١) توحيد المفضل .

(٢) الوافي ، كتاب العلم والعقل ، عن الكافي .

لا يضرنا ما صلينا وصمنا ، وزكينا وأقررنا ، فسكت الرجل .

ثم قال أبو الحسن (ع) : وإن كان القول قولنا ، وهو قولنا ، ألستم قد هلكتم ونجونا . . . . .

وقال أبو الحسن : إني لما نظرت الى جسدي ولم يمكنني فيه زيادة ولا نقصان ، في العرض والطول ، ودفع المكاره عنه وجر المنفعة اليه ، علمت أن لهذا البنيان بانياً فأقررت به ، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته ، وإنشاء السحاب ، وتصريف الرياح ، ومجرى الشمس والقمر والنجوم ، وغير ذلك من الايات العجيبات البينات ، علمت أن لهذا مقدراً منشئاً (١) .

وقال رجل للصادق (ع) : يا بن رسول الله ، دلني على الله ، فقال له : يا عبد الله ، هل ركبت سفينة قط ؟ قال نعم قال فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ، ولا سباحة تغنيك ، قال نعم ، قال فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك ؟ ، قال : نعم . قال الصادق عليه السلام : فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي ، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث (٢) .

وعن الصادق (ع) : قال سمعت أبي يحدث عن أبيه ، أن رجلا قام الى أمير المؤمنين (ع) ، فقال له : يا أمير المؤمنين

---

(١) الوافي ، كتاب العلم والعقل ، عن الكافي .

(٢) البحار م ٢ ص ١٣ . عن معاني الأخبار للصدوق (ره) .

بماذا عرفت ربك ؟ قال : بفسخ العزائم ، ونقض الهمم ، لما أن هممت ، حال بيني وبين همي ، وعزمت فخالف القضاء عزمي ، فعلمت أن المدبر غيري (١) .

وسئل أبو شاكر الديصاني ، ما الدليل على أن لك صانعاً ؟

فقال وجدت نفسي لا تخلو من إحدى جهتين : إما أن أكون صنعتها أنا ، فلا أخلو من أحد معنيين : إما أن أكون صنعتها وكانت موجودة ، أو صنعتها وكانت معدومة فان كنت صنعتها وكانت موجودة فقد استغنيت بوجودها عن صنعها ، وان كانت معدومة ، فانك تعلم أن المعدوم لا يحدث شيئاً ، فقد ثبت المعنى الثالث ، أن لي صانعاً وهو الله رب العالمين (٢) .

وقال الراوي : كنت أنا وإبن أبي العوجاء ، وعبد الله بن المقفع في المسجد الحرام ، فقال بن المقفع : ترون هذا الخلق وأومى بيده الى موضع الطواف ، مامنهم أحد أوجب له اسم الإنسانية الا ذلك الشيخ الجالس ، يعني جعفر بن محمد (ع) فأما الباقون فرعاع وبهائم . . فقال له ابن أبي العوجاء :

وكيف أوجبت هذا الإسم لهذا الشيخ دون هؤلاء ؟ قال : لأني رأيت عنده مالم أر عندهم . فقال ابن أبي العوجاء : مابد من اختبار ما قلت فيه منه . فقال له ابن المقفع : لا تفعل

---

(١) البحار م ٢ ص ١٣ ، عن الخصال للصدوق (ره) :

(٢) البحار م ٢ ص ١٦ عن توحيد الشيخ الصدوق :

فاني أخاف أن يفسد عليك مافي يدك . فقال : ليس ذا رأيك ولكنك تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك إياه المحل الذي وضعت . فقال ابن المقفع : أما اذا توهمت علي هذا فقم اليه ، وتحفظ ما استطعت من الزلل ، ولا تثر عنانك الى استرسال يسلمك الى عقال ، وسمه مالك أو عليك .

قال : فقام ابن أبي العوجاء ، وبقيت وابن المقفع ، فرجع الينا ، وقال : يا ابن المقفع ، ما هـذا ببشر ، وان كان في الدنيا روحاني يتجسد اذا شاء ظاهراً ، ويتروح اذا شاء باطنا فهو هذا .

فقال : وكيف ذاك ؟ قال : جلست اليـه ، فلما لم يبق عنده غيري ابتدأني فقال : إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء وهو على ما يقولون - يعني أهل الطواف - فقد سلموا وعطبتم وان يكن الأمر كما تقولون ، وليس كما تقولون ، فقـد استويتم وهم .

فقلت : يرحمك الله ، وأي شيء نقول ، وأى شيء يقولون ماقولي وقولهم إلا واحد ؟ فقال : كيف يكون قولك وقولهم واحد ، وهم يقولون : أن لهم معاداً وثواباً وعقاباً ، ويدينون بأن للسماء إلهاً ، وأنها عمران ، وأنتم تزعمون أن السماء خراب ليس فيها أحد ؟

قال : فاغتنمتها منـه ، فقلت له : ما منعه إن كان الأمر

كما تقول أن يظهر لخلقـه ، ويدعوهم الى عبادته ، حتى لا يختلف منهم اثنان ، ولم احتجب عنهم ، وأرسل اليهم الرسل ولو باشرهم بنفسه ، كان أقرب إلى الإيمان . فقال لي : ويلك ... وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك ؟ نشؤك ولم تكن ، وكبرك بعد صغرك ، وقوتك بعد ضعفك ، وضعفك بعد قوتك ، وسقمك بعد صحتك ، وصحتك بعد سقمك ، ورضاك بعد غضبك ، وغضبك بعد رضاك ، وحزنك بعد فرحك ، وفرحك بعد حزنك ، وحبك بعد بغضك ، وبغضك بعد حبك وعزمك بعد إبائك ، وإبائك بعد عزمك ، وشهوتك بعد كراهتك ، وكراهتك بعد شهوتك ، ورغبتك بعد رهبتك ، ورهبتك بعد رغبتك ، ورجاؤك بعد يأسك ، ويأسك بعد رجائك وخاطرك بما لم يكن في وهمك ، وعزوب ما أنت معتقده من ذهنك .

وما زال يعد علي قدرته التي هي في نفسي ، التي لا أدفعها حتى ظننت أنه سيظهر فيما بيني وبينه (١) .

---

(١) للبحار م ٢ ص ١٤ عن توحيد الصدوق (ره) :

أقوال علماء الغرب

في إثبات الصانع

لقد اصطلحت على الأمم الغربيـــة إبان نهضتها عوامل نكدة ، وأزمات حالكة ، كان لها آثارها السيئة في تضليلهم وزجهم في متاهات الزيغ والإلحاد .

فكان من أسوء تلك العوامل ما أشاعته الدعاية الإلحادية المضللة : أن العلم والإيمان عدوان لدودان ، ونقيضان لايجتمعان

وانخدع الغرب بهذه الضلالة ردحاً طويلا من الزمن ، وطفقوا بهوس عارم ينفرون من الإيمان ، ويستخفون بقيمه ، ويتحللون من ظوابطه الموجهة ، مما سبب انحلال الغربيين وتسيب مفاهيمهم الروحية والأخلاقية .

ولما زخر المـد العلمي ، وبلغ أوجه في العصر الحديث ، وشهد العالم فتوحاته الباهرة ، تجلى لهم ضلالهم وتجنيهم على الإيمان والعلم بتلك التهمة المفتراة .

وتجلى لهم كذلك ، أن للعلم والإيمان صنوان متآلفان ، فالعلم يدعم الإيمان ويدعو اليه بأساليبه الحديثة وبراهينه التجريبية التي لم يعهدها البشر من قبل .

وكلما اتسع نطاق العلم ، توثقت أواصره بالإيمان ، وازداد تعزيزاً لمبادئه الرفيعة ، كما صرح بذلك قادة الفكر الغربي واعلامه.

واليك نموذجـــاً من شهاداتهم في هذا المجال لتكون عبرة وعظة لشبابنا المثقف ، الذى دفعه الغرور العلمي الى مجافات العقيدة ، والتنكر للإيمان ، محاكاة للغرب ، واقتداء بضلالـــه

القديم ، دون أن يميزوا بين واقع الغرب وظروفه التي سببت له هذا الطيش والضلال ، وبين واقعنا الإسلامي الذى يمجد العلم والعلماء ويفرض طلب العلم على كل مسلم .

قال الدكتور (ايرفنج وليام) استاذ العلوم الطبيعية في جامعة مشيجان منذ سنة ١٩٤٥ ، نقلا عن العالم الطبيعي والكاتب اللامع (اوليفروندل) : « كلما تقدمت العلوم ضاقت بينها وبين الدين شقة الخلاف ، فالفهم الحقيقي للعلوم يدعو الى زيادة الايمان بالله » (١) .

وقال الدكتور (جون وليام كلوتس) استاذ علم الأحياء والفسيولوجيا بكلية المعلمين بكونكورديا منذ سنة ١٩٤٥ :

« لا شك أن العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقدة ، وهي بذلك تزيد من معرفتنا بالله ومن إيماننا بوجوده » (٢) .

وقال الدكتور (البرت ماكومب ونشتر) أستاذ الأحياء بجامعة بايلور ، وعميد أكاديمية العلوم بفلوريدا سابقاً :

« إنني لأشعر بالغبطة تملأ قلبي اليوم ، بعد أن درست العلوم المختلفة ، واشتغلت بها سنوات عديدة ، ولم يكن في ذلك مايزعزع إيماني بالله ، بل إن اشتغالي بالعلوم قد دعم إيماني بالله حتى

---

(١) كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٥٤ .

(٢) = = = = = ص ٤٨ .

صار أشد قوة وأمتن أساساً مما كان عليه من قبل » (١) .

وفي الوقت الذي فند العلماء فيه مزاعم التناقض بين العلم والإيمان نسمع اعترافات الكثيرين منهم بايمانهم بالله تعالى ، واستدلالهم على وجوده بآيات العلم ودلائله المحسوسة ، واليك طرفاً منها :

قال (ديكارت) الفرنسي (١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) :

« إني لم أخلق ذاتي بنفسي ، وإلا فقد أعطيتها سائر صفات الكمال التي أدركها ، إذن أنا مخلوق بذات أخرى ، وتلك الذات يجب أن تكون حائزة جميع صفات الكمال ، وإلا اضطررت أن أطبق عليها التعليل الذي طبقته على نفسي » .

وقال (نيوتن) الانجليزي ، أكبر علماء الفلك في عصره :

« من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد فعل الجاذبية العامة ، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس . فيجب لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد إلهية تدفعها على المماس لمداراتها » .

ثم قال :

« ومن الجلي الواضح أنه لا يوجد أي سبب طبيعي استطاع أن يوجه جميع الكواكب وتوابعها للدوران في وجهة واحدة ، وعلى مستو واحد بدون حدوث أي تغيير يذكر ،

---

(١) كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ١٠٦ .

فالنظر لهذا الترتيب يدل على وجود حكمة سيطرت عليه » .

وقال (هرشل) الانجليزي من أكابر علماء الفلك :

« كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلي لاحد لقدرته ولانهاية ، فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم ، وهو في الواقع صرح عظمة الله وحده » .

وقال (لينيه) الفزيولوجي الفرنسي :

« إن الله الأزلي الكبير ، العالم بكل شيء ، والمقتدر على كل شيء قد تجلى لي ببدائع صنائعه حتى صرت دهشاً متحيراً فأي قدرة وأي حكمة وأى إبداع أودعه مصنوعات يده ، سواء في أصغر الأشياء أو اكبرها ، إن المنافع التي نستمدها من هذه الكائنات تشهد بعظم رحمة الله الذى سخرها لنا ، كما أن جمالها وتناسقها ينبيء بواسع حكمته ، وكذلك حفظها عن التلاشي وتحددها يقر بجلالته وعظمته » (١) .

وقال الدكتور (ادوارد لوثركيل) استاذ علم الأحياء ، ورئيس القسم بجامعة فرانسيسكو :

« لقد عمت في بلادنا في السنوات الأخيرة موجة من العودة إلى الدين ولم تتخط هذه الموجة معاهد العلم لدينا . ولا شك

---

(١) نقلت الأقوال السالفة من دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى م مادة إله .

أن الكشوف العلمية الحديثة التي تشير إلى ضرورة وجود إله لهذا الكون ، قد لعبت دوراً كبيراً في هذه العودة إلى رحاب الله والإتجاه اليه » (١) .

وقال (كلودم هاثاواي) مستشار هندسي بمعامل شركة جنرال الكتريك ، ومصمم العقل الالكتروني للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة لانجلي فيلد :

لقد اشتغلت منذ سنوات عديدة بتصميم مخ الكتروني وهو يستطيع أن يحل بسرعة بعض المعادلات المعقدة المتعلقة بنظرية (الشد في اتجاهين) ، ولقد حققنا هدفنا باستخدام مئات من الأنابيب المفرغة والأدوات الكهربائية والميكانيكية والدوائر المعقدة ، ووضعها داخل صندوق بلغ حجمه ثلاثة أضعاف حجم اكبر بيانو . . .

وبعد اشتغالي باختراع هذا الجهاز سنة أو سنتين ، وبعد أن واجهت كثيراً من المشكلات التي تطلبها تصميمه ، ووصلت إلى حلها ، وصار من المستحيلات بالنسبة إلي أن يتصور عقلي أن مثل هذا الجهاز يمكن عمله بأية طريقة أخرى غير استخدام العقل والذكاء والتصميم .

وليس العالم من حولنا إلا مجموعة هائلة من التصميم والإبداع والتنظيم . وبرغم استقلال بعضها عن بعض ، فانها

---

(١) كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٢٨ .

متشابكة متداخلة ، وكل منهـا اكثر تعقيداً ، في كل ذرة من ذرات تركيبها ، من ذلك المخ الالكتروني الذي صنعته : فاذا كان هذا الجهـاز يحتاج إلى تصميم ، أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجي الكيمي للبيولوجي الذى هو جسمي ، والذى ليس بدوره إلا ذرة من ذرات هذا الكون اللانهائي في اتساعه وإبداعه إلى مبدع يبدعه ؟ » (١) .

---

(١) كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٩١ .

مناقشة الماديين

من أمعن النظر فيما عرضته من خصائص وروائع العوالم السالفة وجدها آيات باهرة ، وألسناً ناطقة ، تسبح بحمد خلاقها العظيم القدير :

ولئن خفت آيات الألوهية على بعض العقول رغم سطوعها وإشراقها ، فذاك الضعف العقول وكللها عن اجتلائها فانبهرت بها كما ينبهر الخفاش في ضوء النهار .

إنها لآيات وضائة متلألئة ، يدركها كل ذي وعي سليم خلا المتخلفين والقاصرين من عشاة البصائر للذين تعاموا عنها ، وآثروا الظلام على النور ، والضلال على الهدى ، وطفقوا بصلف بالغ يهرفون بشبه ومزاعم تدعم واقعهم المنهار :

فيحسن بي أن ألم المامة قصيرة بطرف من تلك الشبه لتوضيح زيغها وتفنيد حججها ، عسى أن يجد المؤمنون في ذلك قوة ومناعة تعزز إيمانهم وتقيهم شرورها ومزالقها الخطيرة .

كما يجد المخدوعون بزخارفها وأوهامها قبساً من النور ، يهديهم إلى الإيمان ، وينقذهم من الحيرة والضلال .

(١) شبهة الماديين :

وهي من أبرز الشبه ، واكثرها شيوعاً بين الماديين ، الذين زعموا أن العالم بهيئته الرائعة ، ونظامه الدقيق الرتيب ، لايستلزم إلهاً وخالقاً ، وإنما هو من صنع المادة وإيجادها .

وهذا خطأ فاضح ، لأن من خبر المادة ، وعرف قصورها الذاتي استحال عليه أن يعزوا اليها الخلق والإبداع للوجوه التالية :

(أ) إنا لانجد في المادة ما يوجب وجودها لذاتها ، وإنما هي قاصرة ، مفتقرة إلى موجد غير مادي إذ لو كان مادياً لكان محتاجاً مثلها ، وذلك برهان على معلولية المادة ، وعجزها أن تكون علة أولية للموجودات .

والمادة فوق ذلك لا تخلو من ثلاثة فروض : (١) إما أن تكون ناشئة بذاتها ، (٢) وإما أن تكون قديمة أزلية ، (٣) وإما أن يكون لها خالق وموجد .

والفرض الاول باطل بداهة ، لاستحالة حدوث الشيء من غير محدث ، والمصنوع من غير صانع .

والفرض الثاني ، وهو قدم المادة ، كالأول فساداً وبطلاناً لأن المادة متغيرة ، وكل متغير حادث ، فالمادة حادثة .

وقد أثبت العلم استحالة قدم المادة وأزليتها ، إذ تنص قوانين الديناميكا الحرارية : إن عناصر الكون تستنفد طاقاتها الحرارية تدريجياً وأنها ستؤل بعد طول الوقت الى درجة الصفر فتنعدم حينذاك الطاقة ، وتستحيل الحياة : فوجود الكون زاخراً مزدهراً بألوان الحياة ، دليل على حدوثه ، وانتفاء أزليته :

وأما الفرض الثالث ، القائل بأن للمادة منشأ وخالقاً ، هو الفرض المنطقي الصحيح ، الذي يقنع العقل ويرضي الوجدان .

(ب) إن من أبرز خصائص المـادة ، اتصافها بالقصور الذاتي ، وفحواه : أن كل جسم ساكن لا يتحرك إلا بمحرك ، وكل متحرك لا يسكن إلا بمسكن . وحيث كانت المادة قاصرة ذاتياً ، لا تستطيع تكييف نفسها وتحريكها ، أو إسكانها ، إلا بقوة خارجة عنها ، فهي لذلك عاجزة عن تطوير نفسها فضلا عن خلق غيرها وإيجاده .

* * *

(ج) خلو المادة من العقل والحياة :

ومن مناقضات الماديين ، أنهم اعترفوا بحرمان المادة من العقل والحياة ، ثم ألهوها وعزوا اليها المعجزات :

فكيف جاز عندهم أن تخلق المادة هـذا الكون ، وهي فاقدة العقل والإدراك :

وكيف استطاعت المادة أن تمنح البشر عقولا راجحة ، وألباباً نيرة ، وهي عديمة العقـل . وبديهي أن فاقـد الشيء لا يعطيه ، ومعطي الشيء لا يكون فاقداً له . وأنه كما يستحيل على الجاهل أن يمنح العلم ، والفقير المعدم أن يهب المال الجم كذلك يستحيل على المادة أن تمنح العقل وهي خلو منه :

وكيف أغدقت المادة على الأحيـاء نعمة الروح والحياة وهي عاطلة منها ؟

إلى كثير من المآخـذ التي لا يجـد الماديون أزائها جواباً مقنعاً غير التخبط في ضروب الخرافات والأوهام .

فمن خرافاتهم في تعليل (العقل) :

أنه منبثق من خلايا الدماغ وحركاته الآلية ، ليسموا العقل سمة مادية تبعده عن واقعه الروحي ، وذلك تعليل واهن لا يقره العلم . فما برح العلماء والفلاسفة القداما والمحدثون يبحثون أسرار العقل ، ويستجلون واقعه ، ويتحرون منابعه ولم يعرفوا منه إلا اليسير ، ولم يهتدوا الى كنهه برأى حاسم . كما صرح بذلك الدكتور الشهير (الكسيس كاريل) في كتـابه (الانسان ذلك المجهول) :

« فهل هو (أى العقل) نتاج الخـلايا العقلية مثلما ينتج البنكرياس الأنسولين ، والكبد الصفراء ، . . . أم هل يجب اعتباره كائناً غير مادي يوجـد خارج الفراغ والزمن ، خارج أبعاد العالم الكوني ، ويدخل نفسه في مخنا بطريقة مجهولة لنا ؟

لذلك كان الحكم على الدماغ بأنه منبع العقـل ومولده ، حكماً تعسفياً لا يقره العلم .

وقال الدكتور (بول كليرانس ابرسولد) استاذ الطبيعة الحيوية ومدير قسم النظائر والطاقة الذرية في معامل أوك ريدج :

« وعنـدما تزايد علمي ومعرفتي بالأشياء من الذرة الى الاجرام السماوية ، ومن الميكروب الدقيق الى الانسان، تبين

لي أن هنالك كثيراً من الأشياء التي لم تستطع العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً ، أو تكشف عن أسرارها النقاب . وتستطيع العلوم أن تمضي مظفرة في طريقها ملايين السنين ، ومع ذلك فسوف تبقى كثير من المشكلات حول تفاصيل الذرة والكون والعقل كما هي ، لا يصل الإنسان الى حـل لها أو الإحاطة بأسرارها (١) .

هذا إلى أن من القرائن ما يجيز استقلال العقل عن الدماغ وأن الدماغ كالراديو في وجه من الشبه ، فكما يلتقط الراديو الأصوات المذاعة لايصالها الى المسامع ، دون أن يكون له أي أثر في إحداثها . كذلك الدماغ ، فانه يتلقى الحقائق ليشعر بها الإنسان ، دون أن يكون له أثر في تمحيصها ووزنها .

وأهم ما يفند الماديين (العقـل الباطن) الذي يعتبر أوسع أفقاً وأبعاداً من العقل الظاهر ، وهو يعمل أعمالا مدهشة مستقلا عن الحواس وخارجاً عن نطاق الدماغ وأعماله الآلية .

وأكثر ما تتجلى مظاهر العقل الباطن وآثاره ، خلال النوم المغناطيسي ، عندما يفقـد النائم حواسه ، ويتعطل عقله الظاهر فيطلعه العقل الباطن على أسرار غامضة ، ماكان يعرفها ويتوصل اليها في حالة اليقظة والإنتباه .

* * *

(١) كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٣٨ .

ومن سخافة الماديين في تعليل ظاهرة الحياة :

أن المادة ـ على حسب زعمهم ـ تعمد الى تركيب العناصر فتنبثق فيها الحياة عنـد تركيبها ، كما تظهر خواص بعض العناصر الكيمياوية عند امتزاجها .

وهو تعليل باطل من وجوه :

١ ـ إن المادة ـ كما أسلفنا ـ قاصرة ذاتياً ، فكيف تستطيع تركيب العناصر وهي قاصرة عنه ؟ ولماذا تركبت بعض العناصر وبقي للبعض الآخر بغير تركيب ؟ وعلام تميزت بعض العناصر بالحياة دون غيرها من العناصر الجمة ؟ فما هذا الاختلاف في الأجزاء المادية ، وليس بينها فروق تحتم هذا الخلاف .

٢ ـ إن اجتماع عناصر المادة وتركيبها لا يوجب انبثاق الحياة فيها فطالما اجتمعت العناصر وتركبت ولم تظهر فيها الحياة .

قال الدكتور (رسل تشارلز آرتست) الاستاذ فى جامعة فرانكفورت بالمانيا ، وعضو الاكاديمية العلمية (باندايانا) : « إن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية ، قد باءت بخذلان وفشل ذريعين .

ومع ذلك فان من ينكر وجود الله ، لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع ، على أن مجرد تجمع بعض الذرات والجزئيات عن طريق المصادفة لا يمكن أن يؤدي الى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في

الخلية الحية » (١) .

وفي ذلك دلالة قاطعة ، أن الحياة لا تنشأ من اجتماع العناصر المادية وتركيبها ، وإنما هي من نفحات الله عز وجل الذى خلق المادة ، ونفخ فيها الحياة .

وقد يرتأي بعض الماديين . أن جرثومة الحياة هبطت الى الأرض على نيزك من نيازك الفضاء ، وليس شيء أدعى إلى السخرية والرثاء من هذا التخريف .

فمن أوجد الحياة في مستقرها الأول ، وهي كسائر الممكنات لا توجد إلا بموجد ؟

ولماذا نشأت الحياة في كوكب دون آخر ، وظهرت فيه بعد أن كانت مكتومة في خفايا الغيب ملايين السنين ؟

ومن سخر النيزك أن يتحمل أعباء رحلتها الى الأرض ، وهو لا يملك الإدراك والشعور ؟

ولو كانت هجرة الحياة الى الأرض صدفة واتفاقاً ، فلماذا استمرت هذه الصدفة ، ودامت الحياة فيها محفوفة بالعناية والتدبير وليس للمادة وعي وتدبير .

وهل كانت هجرتها الى الأرض قبل حلول الأحياء فيها أو بعده ؟ والفرض الأول محال ، لأن الأرض حسب تعليلهم - كانت قطعة ملتهبة من الشمس ، انفصلت عنها ، وتضائلت

---

(١) كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٧٩ .

حرارتها على مر الدهور ، فكيف تعيش الحياة في ذلك المحيط الناري : والفرض الثاني سفه ولغو ، لاستغناء الأحياء - بحياتهم - عنها .

ومن الغريب أن يستسيغ الماديون هذه الفروض والأوهام ولا يستسيغون الإيمان بالله تعالى ، ولو أنهم آمنوا لكان أجدى لهم ، وأيسر عليهم من هذا التخبط الفاضح .

وقد يتمشدق بعض الماديين بنظرية التولد الذاتي ، وأن الحياة نشأت لذاتها من المواد غير الحية ، كما تنشأ الديدان والجراثيم من اللحوم المتعفنة ، والمياه الآسنة .

وقد أسقط العلم الحديث هذه النظرية وأثبت بطلانها ، موضحاً أن تلك الديدان والجراثيم لم تنشأ سن صميم اللحم أو طبيعة المياه ، وإنما هي أحياء دخيلة تسللت من الفضاء إليهما ثم توالدت فيهما .

• • •

هذا وقد اكتشف الغرب علمين خطيرين :

علم التنويم المغناطيسي ، وعلم استحضار الارواح ، كان لهما صدى مدوياً في الأوساط الغربية ، وتحولا خطيراً في مجرى الفكر المادي ، الأمر الذي أدهش العلماء وبعثهم على الاعتراف بوجود الروح وخلودها .

فالتنويم المغناطيسي : هو فن يتعاطاه المختصون به ، ويتخذون

له إنساناً وسيطاً ، يجرون عليه أعمالا خاصة توقعه في سبات عميق ، فيخبر حينذاك عما يسأل عنه من شؤون وأحداث ماكان يتعرفها في حالة يقضته وانتباهه . مما يثبت أن له روحاً متميزة عن جسده المادي :

وأما استحضار الأرواح : فهو فن يستحضرون به الأرواح من عالمها فتكلمهم وتعلمهم أنها روح (فلان) الميت :

فاتضح من هذين العلمين أن الأنسان ليس جسماً ماديـاً فحسب ، بل هو منطوي على أسرار روحية مدهشة ، ولولاها لما صدرت منه الخوارق الروحية في حالة نومه المغناطيسي ، ولما أمكن استحضار الأرواح ومكالمتها ، وسواء كان حضورهـا حقيقة أو مجازاً ، فهو على أي تقدير يثبت شيئاً روحياً ، خارجاً عن إطار المادة وأوصافها ، لذلك فقد انهارت مزاعم الماديين على ضوء العلم والوجدان .

والماديون بعد هذا بين فرضين : إمـا أن يعترفوا بعجز المادة وقصورها وحرمانها من العقل ، فأنى لها أن تنشأ هـذا الكون العظيم بهيئته الرائعة وقوانينه الثابتة ونظامه الدقيق الحكيم ؟

وإما أن ينعتوا المادة بالعقل الجبار ، والقدرة الخارقـة ، والإرادة النافذة ، والقصد السامي ، وأنها فوق ذلك أزلية قديمة ، متحلية بجميع صفات الكمال ، ومنزهة عن كافة النقائص ، فقد اتفق المؤمنون والماديون في ضرورة وجود خالق ومبدع لهـذا

الكون ، واختلفوا في اسمائه . فسماه المؤمنون إلهاً ، وسماه الماديون مادة وغدى النزاع لفظياً بين الفريقين .

• • •

وهكذا نحاج الطبيعيين - الذين عزو صنع الكون وإبداعه الى الطبيعة - بما حججنا به الماديين من قبل .

فنسألهم ما هي الطبيعة ؟ .

ليست هي كلمة اصطلاحية أطلقت على العناصر والمظاهر الكونية كالهواء والماء والأحياء والجمادات ، وما تتسم به من صنوف الخصائص والآثار .

ولا يرتاب ذى لب أن من أبرز خصائص تلك العناصر الطبيعية اتصافها بالقصور والعجز الذاتيين ، فهي لذلك مفتقرة إلى صانع وموجد ، لاستحالة حدوثها من غير محدث بداهة ووجداناً وحيث كانت كذلك ، فكيف تستطيع إنشاء هذا الكون وابداعه ، وتقرر قوانينه وانظمته ! .

والطبيعيون - كما أسلفنا في الماديين - بين فرضين :

إما أن يعترفوا باتصاف الطبيعة بالعقل والقدرة والإرادة وسائر مؤهلات الخلق والابداع ، أو أن يعتقدوا قصورها وحرمانها من كل ذلك .

فان اعترفوا بالفرض الأول ، فقد تساوى المؤمنون والطبيعيون في اعتقادهم بوجود الخالق والصانع ، وافترقوا في

أسمائه ، كما سبق في الماديين . وإن اعتقدوا الفرض الثاني ، فكيف ألهوا الطبيعة القاصرة ، ونسبوا اليها صنع هذا العالم الزاخر بآيات الجلال والجمال ، وروعة التناسق والنظام . . . ؟

• • •

(د) فناء المادة :

كان المعتقد قديماً أن المادة خالدة لا تفنى ولا تنعدم ، فلما تقدم العلم أبطل ذلك الاعتقاد ، وأثبت أن المادة فانية ، وأنها تتلاشى بالتحليل المستمر ، كما قال الاستاذ (جوستاف لوبون) في كتابه (تولد المادة وفناؤها) :

« علم الأمس كان مؤسساً على أبديـة المادة ، ولكن علم الغد سيتأسس على قبولها للفناء ، وسيكون غرضه الأول إيجاد وسائل سهلة لزيادة انحلالها ، ووضعه بذلك تحت تصرف الانسان قوى تكاد لا يكون لها حـد . . . وعلى هذه الخاصة أسست (السبينتاريسكوب) وهي آلة تجعل التحلل المستمر للمادة مرئياً لأعين أبعد الناس عن التصديق » (١) .

وقال الدكتور (جون كليفلاند كوثران) وهو من علماء الكيمياء ، ورئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولت : « تدلنا

(١) فريد وجـدي ، على اطـلال المذهب المادي ج ١ ص ٥١ و ٥٣ .

الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال والفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة ، والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فان المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أنها ليست أزلية » (١) .

وقال العلامة المفضال المرحوم الاستاذ أحمد أمين :

« كان (لاووازيه) الكيميائي المعروف يقول ببقاء المادة أي أن المادة لا تفنى ولا تستحدث . . .

وقد فند قانون (لا ووازيه) بعد اكتشاف بعض حقائق الذرة . . . وقد أثبت العلم الحاضر ، أن جميع مافي الكون من عناصر ستتلاشى ، وذلك لأنهم رأوا أن الالكترون الموجب يتصادم مع الالكترون السالب في بعض الأحيان فينعدم كلا الالكترونين ويفنيان ، وهذا ما يدعى (انعدام المادة أو موتها » .

ان الله تعالى يقول :

(كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) » (٢) الرحمن ٢٦ ، ٢٧ .

وهكذا كان العلماء السابقون يرون استحالة تجزئة المادة وتقسيمها ، لدقتها المتناهية : فلما اتسع نطاق العلم ، وتقدمت الأبحاث الذرية ، إستطاع العلماء المحدثون تفجيرها وتجزئتها ،

---

(١) كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٢٧ .

(٢) التكامل في الإسلام ج ٢ ص ٣٢ - ٦٣ بتلخيص وتصرف

وتجلت لهم بذلك حقائق مدهشة .

تجلى لهم أن كل ذرة : عالم مستقل ينطوي على أجزاء ذرية ، تشابه المجموعة الشمسية في تأليفها ونظامها ، اصطلحوا عليها : البروتون ، والالكترون ، والنيوترون .

وهذه الأجزاء هي في منتهى الدقة والضئآلة ، بحيث يعتبر كل فرد منها جزء من عشرة ملايين جزء من المليمتر .

فالبروتون : هو نواة الذرة ومحورها ، وهو ينطوي على شحنة كهربائيه موجبة .

والالكترون : هو غلاف الذرة ومحيطها ، وهو يحتوي على شحنة كهربائية سالبة .

وكل من البروتون والالكترون قد يتألف من جزىء واحد أو جزئيين أو أكثر ، على حسب ذرات المادة ، بيد أنهما متعادلان في شحنتهما وعدد جزيئاتهما ، فالشحنة الموجبة تساوي السالبة وكل ذرة تضم بروتوناً واحداً يعادله الكترون واحد ، أو تضم بروتونين فيعادله الكترونان ، وهكذا دواليك .

وهذه الالكترونات تدور حول البروتونات (أو النواة) دورتين فى آن واحد ، فتارة : تدور حول نفسها دوران الارض حول محورها ، وأخرى : تدور حول النواة في مدارات تختلف سعة وضيقاً كما تدور الكواكب السيارة حول الشمس ، فتقطع في دورتها أقصى سرعة عرفها الانسان ، قد تبلغ بضعة آلاف

مليون مليون دورة في الثانية .

وأما النيوترون : فهو الجزء المحايد والمجرد من كل شحنة موجبة أو سالبة ، وموقعه قلب الذرة ونواتها .

لذلك فقد انسلخت الذرة - بتفجيرها - من خصائصها العنصرية والمادية ، واستحالت الى طاقات هائلة جداً ، اكتشفت منها القنابل الذرية والنووية .

ولهذا استطاع العلماء أن يحولوا المادة الى طاقة ، والطاقة الى مادة ، وهذا من أعظم الاكتشافات العلمية في العصر الحديث . فالغرام الواحد من المادة يتحول الى طاقة تعدل (٢٢) مليون مليون سعرة حرارية ، ويمكن تحويل ملعقة من الزئبق الى طاقة ضخمة تستطيع أن تسيّر قطاراً كبيراً حول الأرض سبع مرات .

وقد ذكر الباحثون في الذرة : أن أساليب التفجير المعروفة تطلق واحد من ألف من طاقات الذرة ، وهم يأملون أن يتوصلوا الى استحداث أساليب أخرى تمكنهم من اطلاق (٩٩٠) من الألف من طاقاتها الجبارة . وفي وسعهم آنذاك أن يولدوا من مادة زنتها رطل واحد طاقة تعدل مليون ونصف مليون طن من الفحم ، فتستطيع قنبلة واحدة زنتها عشرة أرطال أن تفني العالم بأسره .

* * *

وهكذا استطاع العلماء تطوير العناصر واستبدال بعضها من بعض « حيث أحالوا الراديوم الى هليوم والى رصاص ، واليورانيوم الى رادون والى بزموث ، والنتروجين الى أوكسجين والى كاربون ، والنحاس الى زنك ثم الى نيكل ، وأحالوا الصوديوم الى مغنيسيوم ، من صغير العناصر الى كبيرها ، ومن كبير العناصر الى صغيرها » (١) :

ويحصل هذا التبادل بطرق طبيعية وأخرى صناعية :

• • •

والآن ، ونحن في نهاية المطاف نستطيع أن نستنتج من خصائص المادة ، وأطوارها ، حقائق هامة نجملها في النقاط التالية :

١ ـ لقد عرفت أن المادة فانية ، والفاني عاجز عن الخلق والإبداع ، لأن ما يسبقه العدم أو يلحقه الفناء ، منوط بعلة خارجة عنه ، يوجد بوجودها ، ويفنى بفنائها . وهذا من أبرز سمات العجز والقصور ، والخالق الحق هو ما كان قائماً بذاته مستغنياً عن غيره ، لا يسبقه العدم ، ولا يلحقه الفناء ، ولولا ذلك لكان ممكناً ، معلولا لغيره .

٢ ـ وقد عرفت كذلك أن المادة مركبة من ذرات دقيقة

---

(١) الدكتور أحمد زكي ، في كتابه : مع الله في السماء ، (بتصرف) .

وكل ذرة مؤلفة من ثلاثة أجزاء ، تدور حول بعضها بنظام كنظام المجموعة الشمسية . وواضح أن كل تركيب وحركة ونظام ، يستلزم مركبا ومحركا ومنظماً . فمن الذي ركب المادة وسيرها بانتظام ، وهي قاصرة ذاتياً يستحيل عليها كل ذلك ؟

وفي هذا دلالة صارخة أن للمادة خالقاً يصرفها بمشيئته كيف يشاء .

٣ ـ وقد عرفت أيضاً أن المادة متغيرة لتطورها وتكيفها من حال الى آخر :

من الأفراد الى التركيب ومن التركيب الى الأفراد
من المادة الى الطاقة ومن الطاقة الى المادة
ومن عنصر الى آخر

ومن الثابت أن كل متغير حادث ، معلول لغيره ، ولا يصلح أن يكون علة للخلق والإبداع ، لأن الخالق يجب أن يكون قائماً بذاته ، مستغنياً عن غيره ، لا يزول ولا يتغير ، إذ الزوال والتغير دليل على تغاير العلة وانفكاكها عنه ، وكونها غير ذاتية فيه ، وهو محال عليه .

وحيث كانت المادة متغيرة ، فقد ثبت حدوثها وافتقارها الى المحدث ، واستحال عليها آن تكون علة أولية للخلق :

٤ ـ لقد اتضح مما أسلفناه آنفاً ، أن خصائص المركبات المادية ليست أصيلة ذاتية فيها ، وإنما هي عرضية طارئة ،

لامكان تجريدها من تلك الخصائص ، وسلبها منها باحالتها الى عناصرها البسيطة :

فحلاوة السكر ، مثلا ، صفة عرضية له ، لامكان زوالها بتحليله وإرجاعه الى عناصره الأولية : من الكاربون والأوكسجين والهايدروجين ، فتزول حينذاك حلاوته ، ولو كانت ذاتيـة لاستحال زوالها .

٥ ـ وهكذا القول في خواص العنـاصر البسيطة ، فانها ليست ذاتية فيها ، لزوالها بتحويل العناصر ، واستبدال بعضها ببعض . فالنحاس مثـلا ، سرعان ماتزول وتتلاشى خاصيته باحالته الى زنك ثم الى نيكل . ويفقد الراديوم خاصيته بتحوله وتطوره الى هليوم والى رصاص ، وهكذا دواليك .

ولو كانت خواصها ذاتيـة امتنع استبدالها وتحويلها من عنصر الى آخر .

فنستنتج من ذلك أن خواص العناصر المادية ، مركبـة كانت أو بسيطة ، كلها عرضية فيها ، كما سبق بيانه .

وخواص الحقيقة المادية هي عرضيـة كذلك ، لامكان تجريدها منها بتحويلها الى طاقات كهربائية ضخمة :

وحيث كانت المادة بهـذه المثابة من الوهن والقصور ، عاجزة عن اكتساب خصائصها ، أو الاحتفاظ بها ، فأنى لها أن تخلق هذا الكون العظيم ، بهيئته الرائعـة ، وقوانينه العتيدة

ونظامه الدقيق الرتيب .

من أجل ذلك ، فقد انهارت مزاعم الماديين في تأليه المادة وعزو الخلق والابداع اليها . وتلاشت هباء على ضوء العلم الحديث ، ونظرياته الحسية .

. . .

(٢) شبهة الصدفة :

وهي التي يعزو أربابها حدوث الكون ووجوده الى الصدفة والإتفاق : وأنه غني عن التعليل بموجد سوى ذلك :

وهـذه خرافة يستنكرها العقـل والوجـدان : لاستحالة حدوث المصنوعات ذات الغاية والحكمة بغير إرادة واعيـة ، وقصد هادف ، كاستحالة حدوث الفعل من غير فاعل ، والأثر بدون مؤثر :

ومتى تجلى القصـد ، واتضحت الغاية في الموجود ، كان لابد له من قاصد مريد ، واستحالت فيه الصدفة والاتفاق .

أرأيت لو شاهدت جهازاً له غاياته ومنافعـه ، كالسيارة والطائرة والساعة والراديو ونحوها ، أكنت تتوهم أنه نشأ صدفة من غير قاصد مريد ؟ ولو ادعى ذلك مدع لحكمت بجنونه ، لامتناع الصدفة فيه بداهة ووجداناً .

ولئن استحالت الصدفة في الجهاز الآلي ، فهي في هـذا الكون العظيم أشد استحالت وامتناعاً .

هذا الى أن حدوث الكون صدفة ، لا يحتم بقائه ودوامه محتفظاً بتناسقه ونظامه .

فلماذا انتظم الكون بعد فرض وجوده صدفة ، ولم يعروه التبعثر والانحلال ، وتعمه الفوضى والتسيب . . . ؟

كأن تشرق الشمس من المغرب ، أو تغيب من المشرق . ويبزغ القمر تارة بدراً ، وأخرى مباشرة هلالا . ويصير الليل نهاراً والنهار ليلا . ويلد الإنسان حيواناً ، والحيوان إنساناً . ويثمر الشجر خلاف نوعه ، فينتج النخل رماناً ، والقمح عنباً ونحو ذلك مما يشعر بالفوضى والتسيب .

إذاً فبقاء الكون واتساقه ملايين الدهور والأحقاب ، برهان صارخ على إرادة موجده وقصده .

قال الاستاذ (اكريسي موريسون) الرئيس السابق لأكاديمية العلوم في نيويورك : « نستطيع بناموس رياضي لا يتبدل ، أن نقيم الدليل على أن العقل الذي وضع نظام الكون ونفذه عقل مهندس حكيم ، خذ عشرة قروش وارقمها من واحد الى عشرة ، ثم ضعها في جيبك واخلطها ما استطعت ، ثم حاول أن تخرجها من جيبك دون أن تنظر بحسب ترتيب أرقامها ، الأول أولا ، والثاني ثانياً ، وهكذا ، على أن تعيد كل قرش تخرجه الى جيبك بعد اخراجه ، ثم تخلطها جميعاً ، وتخرج القرش الذي يليه :

ونحن نعلم ، أن الاحتمال الرياضي لإخراج القرش الأول أولا ، هو واحد من عشرة ، ولإخراج القرشين الأول والثاني

بهذا الترتيب ، هو واحد من مائة ، وأن الاحتمال الرياضي لإخراج القروش الثلاثة الأول على التوالي ، هو واحد من ألف ، وهكذا .

فالاحتمال الرياضي لإخراج القروش العشرة تباعاً ، من واحد الى عشرة ، يبلغ رقماً لا يصدق ، هو : واحد من عشرة ملايين .

وعلى هذا النمط من التفكير نستطيع أن نقول : أن الأحوال الدقيقة اللازمة للحياة على الأرض تبلغ من الكثرة مبلغاً يجعل توالبها المحكم بالمصادفة أمراً مستحيلا » (١) .

وقال الدكتور عبد المجيد سرحان ، في مقدمة كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) :

« إذا كال لدينا صندوق كبير ملىء بآلاف عديدة من الأحرف الأبجدية ، فان احتمال وقوع حرف الألف بجوار الميم لتكوين كلمة أم قد يكون كبيراً ، أما احتمال تنظيم هذه الحروف لكي تكون قصيدة مطولة من الشعر أو خطاباً من من إبن الى أبيه ، فانه يكون ضئيلا إن لم يكن مستحيلا .

ولقد حسب العلماء احتمال اجتماع الذرات التي يتكون منها جزيء واحد من الأحماض الأمينية (وهي المادة الأولية التي تدخل في بناء البروتينات واللحوم) ، فوجدوا أن ذلك

(١) مجلة المختار ، عدد شباط لسنة ١٩٤٧ م .

يحتاج الى بلايين عديدة من السنين والى مادة لا يتسع لها هذا الكون المترامي الأطراف .

هذا لتركيب جزيء واحد على ضئآلته فما بالك بأجسام الكائنات الحية جميعاً من نبات وحيوان . وما بالك بمالا يحصى من المركبات المعقدة الأخرى ، وما بالك بنشأة الحياة وبملكوت السموات والأرض ، إنه يستحيل عقلا أن يكون ذلك قد تم عن طريق المصادفة العميـــاء ، أو الخبطة العشواء ، لابد لكل ذلك من خالق مبدع ، عليم خبير ، أحاط بكل شيء علماً ، وقدر كل شيء ثم هدى » .

° ° °

(٣) شبهة قدم العالم :

ومن مزاعم الماديين في تعليل العالم ، أنه قديم أزلي ، فلا داعي لتعليله ونسبته الى صانع وموجد سواه .

وقد أخطأوا وهم لا يشعرون بأنه ليس في هذا العالم من الصفات والخصائص ما يوجب وجـــوده لذاته واستغنائه عن الموجد . فهو بحكم تغيره وقصور عناصره وكائناته ، متصف بالحدوث والامكان ، ومفتقر الى ضرورة الموجد . لذلك كان القول بقدمه محالا ، ممتنعاً .

وقـد أبطل العـلم الحديث هـــذه الشبهة وزيفها ، بقانون الديناميكا الحرارية ، حيث يقول الدكتور (أدوارد لوثر كيل) أستاذ علم الأحياء ، ورئيس القسم بجامعة سان فرانسيسكو :

« العلوم تثبت بكل وضوح أن هـذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ، فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة الى الأجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة ، فترتـد من الأجسام الباردة الى الأجسام الحارة ، وسعنى ذلك : أن الكون يتجه الى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام ، وينضب فيها معين الطاقة ، ويومئذ لن

تكون هنالك عمليات كيمياوية أو طبيعية ، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون .

ولما كانت الحيـاة لا تزال قائمة ، ولا تزال العمليات الكيمياوية والطبيعية . تسير في طريقها ، فاننا نستطيع أن نستنتج أن هـذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود .

وهكذا توصلت العلوم دون قصد ، أن لهذا الكون بداية وهي بذلك تثبت وجود الله ، لأن ماله بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ، ولابد له من مبدأ ، أو من خالق هو الإله » (١) .

من أجل ذلك فقد بطلت هذه الشبهة وتلاشت على ضوء العلم وقوانينه الأصيلة .

* * *

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ٢٩ .

(٤) شبهة الحسيين :

ومن حماقة الماديين أنهم ينكرون كل ما تعجز الحواس عن إدراكـــه ، وتقصر العيون عن رؤياه ، وبذلك جحدوا الله عز وجل ، لعجزهم عن رؤيته ومشاهدته .

وقد فضحت هذه الشبهة غبائهم وجهلهم ، إذ لم يفرقوا بين ممكن الرؤية ومستحيلها .

وواضح أن طاقة الحواس وقدرتها محـدودة ، لا تتعدى أمد المحسوسات المادية فحسب ، وتعجز عما سواها من المفاهيم الروحيـــة .

وحيث كان الله عز وجل منزهاً عن الجسم والمادة ، إذ لو كان سبحانه جسماً مادياً لكان ممكناً معلولا لغيره ، كسائر الموجودات المادية . لذلك عجزت الحواس عن ادراكـــه ، وادركته العقول بآثاره وآيات خلقه .

وخفى على الحسيين ، أن قصر الاعتقاد على المحسوسات فحسب ، جناية كبرى على واقع العـلم وحقائقه المرتكزة على البراهين العقلية ، واسقاطها عن الاعتبار ، فلا مناص من التسليم والإذعان لسلطان العقل السليم وبراهينه السديدة . هذا الى أن

الحواس نفسها كثيراً ما تقصر عن تبين الحقائق الحسية ، فضلا عن العقليـــة . فهي ، مثلا ، ترى الأرض ساكنة وهي تسير (١٠٧٠٠٠) كيلو متراً في الساعة ، في طوافها السنوي حول الشمس ، وهي لا تبصر قوة الجاذبية الأرضية ، رغم ثبوتها وأهميتها . ولا ترى الهواء رغم انتشاره وضغطه على الأجسام .

وهي أكثر عجزاً وقصوراً عن استجلاء الحقائق الروحية وتفهم واقعها ، كالعقل والروح ، والحب والبغض ، والفرح والحزن ، واللذة والألم ، ونحوها مما لا يدرك الا بالخصائص والآثار

والحواس بعـد هذا كثيراً مـا تخدع الإنسان وتريه الشيء على خلاف واقعه . وتريه الأرض سائرة في اتجاه معاكس لسيره السريع وهي ساكنة . تريه قطرة المطر سلكاً مائياً ، وهي قطرة واحدة . وتجسد أعمال السحرة والمشعوذين ، وهي أوهام خادعة .

فمن الخطأ أن نعتمد على الحواس اعتماداً كلياً ، نابذين سلطان العقل ، وبراهينه الساطعة ، وعلينا أن نعطي كـــلا من العقل والحواس ما يستحقه من الثقة والتقدير .

وقد أحسن الـدكتور (واين أولت) عضو الجمعيـــة الجيولوجية الأمريكية ، حيث قال : « الحياة لا تتسع والظروف لا تسمح لكي يقوم الإنسان بنفسـه باجراء كل تجربة لنفسـه ، فعليه أن يسلم تسليماً بمـا قام به رجال العلوم الذين سبقوه من أعمال وتجارب .

فمن ذلك ، مثلا ، أن عدد من قاموا بتجديد سرعة الضوء يعد قليلا جداً ومع ذلك فإن كل الناس يسلمون بسرعته المعروفة ولا يساورهم شك في أمرها .

وكذلك الحال فيما يتصل بتركيب الـذرة وبالصورة التي رسمها لها (بور) وهي صورة مبسطة تعيننا على إدراك سلوك الذرة وخواصها .

وكذلك الحال فيما يتعلق بتركيب الأجرام السماوية البعيدة مما لا نستطيع أن نخضعه لتجاربنا .

فلابد أن يؤمن الإنسان بكثير من المعلومات إيماناً يقوم على التسليم بصحتها . ويستطيع الانسان أن يمارس هذا الإيمان فيما يتصل بوجود الله ، فقد أرسل الله الرسل وأنزل عليهم كتبـاً تؤكد فكرة وجود الله تعالى » (١) .

. . .

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص١٣٢ ، نقل بتصرف وتلخيص

(٥) شبهة الارزاء :

وهكذا يتفنن الملحدون في اختـــلاق المزاعم ، وزخرفة الأوهام ، كأنهم يستعذبون الخرافة والتهريج .

فمن مزاعمهم : أن الشرور التي تنتاب النـاس ، والرزايا التي تلم بهم ، كعروض الأمراض وحدوث الصواعق والزلازل وطوارىء الحرق والغرق ، وخلق المؤذيات من السباع والحشرات كل ذلك دليل على تسيب العالم ، وخلوه من سمات القصـــد والتدبير ، مما زجهم في مهاوي الكفر والالحاد .

وسأوضح بطلان هـــذه الشبهة ، وفسادها بما أعرضه في مطاوي هذا البحث ، حسب العناوين التالية :

(أ) الأمراض :

ليست الأمراض كما يزعمون ، ناشئة عن قصور في العناية الإلهية ، أو نقص في تدبيرها الحكيم ، وإنما هي ناشئة في الأعم الأغلب عن مخالفة القوانين الإلهية ، والآداب الشرعية المسنونة لصيانة الإنسان ، ووقايته من شرور الأمراض والاسقام .

فلا ريب أن الإفراط في الأكل ، والاسراف الجنسي ،

وتعاطي المخدرات والمنبهات ، ومواصلة الاجهـاد الجسمي والفكري ، كل ذلك من دواعي اعتلال الانسان وانحراف صحته .

هذا الى أن الانسان بحكم واقعه وطبيعة تكوينه ، عرضة لمختلف الطوارىء التي لا تنفك عنها جميع الممكنات ، تلازمه ملازمة الظل لصاحبه كالمرض والهرم ، والضعف والموت ، فنفي ذلك عنه جهل بحقيقته ، واعفائه من ألصق خصائصه البشرية .

بيد أن الله عز وجل لم يدع الإنسان فريسة للأمراض وهدفاً لها ، فقد علمه طرائق الوقاية والعلاج منها ، وجعل لكل داء دواء يستطب به وما برح الأطباء عبر العصور مكتشفون الأدوية الناجعة والعقاقير الشافية لكثير من الامراض .

وبالرغم من فداحة الأمراض وآلامها المبرحة، فانها لاتخلو من حِكم ومصالح ، فهي محك واختبار للإنسان يستجلي مبلغ إيمانه ، وواقع أخلاقه وتمسكه بالصبر أو الجزع ، بالتفويض إلى الله تعالى ، أو السخط على قضائه وتدبيره ، وعلى ضوء نتائج الاختبار ينال الممتحن ما يستحقه من الأجر والمكافأة . (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صـدقوا ، وليعلمن الكاذبين) : العنكبوت ٢ - ٣ .

والأمراض بعد هـذا وذاك وسيلة تأديبيـة تزجر الغواة والعابثين ، الذين أبطرتهم العافية وغرتهم الصحة ، فاندفعوا في

تيار الأهواء والآثام دونما اكتراث ومبالات بنتائجها السيئة ومغبتها الوخيمة ، فتقرعهم آنذاك الامراض بسوطها الموجع ، لتؤدبهم وتقوم انحرافهم ، وتعيدهم إلى الرشد والصواب .

قال النبي الأعظم (ص) : « لولا ثلاثة في ابن آدم ، ما طأطأ رأسه شيء ، المرض والموت والفقر . وكلهن فيه ، وأنه معهن لوثاب » .

وهي كذلك كفارة للمؤمن ، وطهارة له من تبعات الذنوب ودنس الآثام ، ليلقي الله عز وجل نقياً آمناً من سخطه وعقابه كما أعربت عن ذلك آثار أهل البيت (ع) :

قال الامام الرضا (ع) : « المرض للمؤمن تطهير ورحمة وللكافر تعذيب ولعنة ، وإن المرض لا يزال بالمؤمن حتى لايكون عليه ذنب » (١) .

وقال (ع) : « للمريض أربع خصال : يرفع عنه الظلم ويأمر الله الملك يكتب له كل فضل كان يعمله في صحته . ويتبع مرضه كل عضو في جسده فيستخرج ذنوبه منه . فإن مات مات مغفوراً له ، وإن عاش عاش مغفوراً له » (٢) .

* * *

(ب) وأما الآفات التي تنتاب الناس وتلم بهم أحياناً ، كالصواعق والزلازل ، وطوارق الحرق والغرق ، وانتشار الجراد

---

(١) و (٢) البحار عن ثواب الأعمال .

ونحوها من المكاره والأرزاء ، التي اتخذها الملحدون ذريعة إلى إنكار الخالق ، ونفي الحكمة والتدبير في خلقه .

وتلك شبهة مخرفة تكشف عن بلادة أربابها وغبائهم الفاضح . كيف يكون العالم غفلا مهملا من العناية والتدبير . . ؟ ! ونحن نشاهد آيات الحكمة ودلائل القصد والتدبير تطالعنا فيه هنا وهناك ، في أقطار الأرض وآفاق السماء ، وفي جميع الموجودات ، صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها . وعلام لم يحدث في الكون ماهو أفظع من ذلك :

« كأن تسقط السماء على الأرض ، وتهوي الأرض فتذهب سفلا ، وتتخلف الشمس عن الطلوع ، وتجف الأنهار والعيون وتركد الريح حتى تفسد الأشياء ، ويفيض ماء البحر على الأرض فيغرقها .

وما بال هذه الآفات لا تدوم ، وتمتد حتى تجتاح العالم بل تحدث في الأحايين ثم لا تلبث أن ترتفع . أفلا ترى أن العالم يصان ويحفظ من تلك الأحداث الجليلة ، التي لو حدث شيء منها كان فيه بواره ؟

ويلذع بهذه الآفات اليسيرة لتأديب الناس وتقويمهم ، ثم لا تدوم بل تكشف عنهم . فيكون وقوعها بهم موعظة ، وكشفها عنهم رحمة .

ولو كان عيش الإنسان ، في هذه الدنيا ، صافياً من كل

كدر ، تخرج الإنسان من الأشر والعتو الى مالا يصلح في دين ولا دنيا ، كالذي نرى كثيراً من المترفين . ومن نشأ في الجدة والأمن يخرجون اليه ، حتى أن ينسى أحدهم أنه بشر ، وأن ضرراً يمسه أو مكروهاً ينزل به ، وأنه يجب أن يرحم ضعيفاً ، أو يواسي فقيراً أو يرثى لمبتلى ، أو يعطف على مكروب ، فاذا عضته المكاره ، ووجد مضضها اتعظ وأبصر كثيراً مما كان جهله وغفل عنه ، ورجع الى كثير مما كان يجب عليه .

والمنكرون لهذه الأمور بمنزلة الصبيان الذين يذمون الأدوية المرة البشعة ، ويسخطون من المنع من الأطعمة الضارة ، ويتكرهون الأدب والعمل ، ويحبون اللهو والبطالة ، وينالون كل مطعم ومشرب ، ولا يعرفون ما تؤديهم اليه البطانة من سوء النشوء والعادة ، وما تعقبهم الأطعمة اللذيذة من الأدواء والاسقام ، وما لهم في الأدب من الصلاح ، وفي الأدوية من المنفعة ، وإن شاب ذلك بعض الكراهة .

فان قالوا ولِمَ لم يكن الإنسان معصوماً من المساوىء ، لايحتاج إلى أن تلدغه هذه المكاره .

قيل : إذن كان يكون غير محمود على حسنة يأتيها ، ولا مستحق للثواب عليها .

وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التي تصيب الناس فتعم البر والفاجر ، أو يبتلى بها البر ويسلم الفاجر منها . كيف يجوز هذا

في تدبير الحكيم ، وما الحجة فيه ؟

فيقال لهم : إن هـذه الآفات ، وإن كانت تنال الطالح والصالح معاً ، فان الله عز وجل جعل ذلك صلاحاً للصنفين ، كليهما :

أما الصالحون : فان الذي يصيبهم من هـذا يزيدهم نعم ربهم في سالف أيامهم ، فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر .

وأما الطالحون : فان مثل هذا ، إذا نالهم ، كسر شرتهم وردعهم عن المعاصي والفواحش :

وكذلك يجعل لمن سلم من الصنفين صلاحاً في ذلك :

أما الأبرار : فانهم يغتبطون بما هم عليه من البر والصلاح ويزدادون فيه رغبة وبصيرة .

وأما الفجار : فانهم يعرفون مابهم من رأفة ربهم وتطوله عليهم بالسلامة من غير استحقاق ، فيحضهم ذلك على الرأفة بالناس والصفح عمن أساء اليهم » (١) .

* * *

(ج) وهكذا يعترض الجاحدون في تشـدق فاضح على الشرور والمظالم التي يقترفها الناس ، من إثارة الحروب وسفك الدماء ، وهظم الحقوق والكرامات ، ونحوها من صور المظالم

(١) توحيد المفضل ، (بتصرف) .

التي استدلوا بها على تسيب العالم واغفاله من ضوابط العناية والتدبير :

وهذا اعتراض ساقط غبي ، إذ ليس العالم مهملا كما يزعمون ، وليس تلك الظلامات ناشئة من إهماله وإغفاله ، وإنما هي من شذوذ الانسان وعتوه وطغيانه .

فقد أرسل الله الأنبياء والمرسلين الى الناس ، مبشرين ومنذرين ، فلم يتركوا فضيلة الا حرضوا عليها ، ولا رذيلة الا حذروا منها ، وجهدوا ما استطاعوا في تهذيب الانسان ورقيه وإسعاده .

وإنما شقت للبشرية وعانت تلك الشرور والأرزاء ، بطغيانها وتمردها على الأنبياء عليهم السلام ، ودساتير السماء الكافلة الموجهة ، ولو أنها استنارت بهداهم وسارت على نهجهم ، لسعدت وعاشت في طمأنينة وسلام ، متفادية تلك المظالم . « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » الأعراف : ٩٦ .

وليس من الحكمة أن يجبر المولى عباده على طاعته ، ومجانبة عصيانه ، فانهم لو قسروا على ذلك لانعدمت فيهم مقاييس الفضل والكمال ، وتلاشت الفوارق والميزات بين الطيب والخبيث ، والمحسن والمسيء ، ولم يستحق المحسن ثواباً

ولا المسيء عقاباً ، وذلك مناف لصميم حكمة الله عز وجل :

وهكذا لو أجبر الناس على الطاعة والصلاح ، لانحطوا عن سمو الانسانية الى حضيض البهائم والدواب ، التي تساس بالعصا والارهاب ، وذلك مزر بكرامة البشر .

وليس الاعتراض على نقص الانسان وعدم خلقه كاملا مبرءاً من الشذوذ والاجرام ، الا كالقول بضرورة قسره على الطاعة ، وكلاهما باطلان كما عرفت :

أضف الى ذلك ، أن انتفـــاء التمايز والتفاضل بين الناس وجعلهم صورة واحـــدة لا تختلف ولا تتفاوت في المواهب والكفاءات ، باعث على فساد المجتمع وتسيب نظامه القائم على التمايز والتفاوت .

• • •

(د) الموت :

وقـد اتخذه الجاحدون وسيلة للدس والتهريج على إغفال العالم وخلوه من التدبير ، لشيوع الموت فيه ، وأنه كان الأجدر على زعمهم أن يظل الانسان خالداً في الحياة ، لا يفنى ولا يموت إذ اعتبروا الموت شراً مستطيراً وبلاء مبرماً .

ليس الموت شراً كما يزعمون ، وإنما هو انتقال من سجن الحيـــاة وأسرها وآلامها ، الى جنان الآخرة ونعيمها الخالد ،

وليس الاعتراض على موت الانسان وارتحاله الى عالم الخلد ، الا كالاعتراض على الجنين بخروجه من ضيق الرحم وظلمته الى فضاء الدنيا ونورها الوهاج ، إذ ليست الدنيـــا في قياسها بالآخرة إلا كقياس الرحم من سعة الدنيا وجمالها الفاتن .

على أن البشر لو كانوا خالدين في الحياة لضاقت عليهم الأرض برحبها وأعوزتهم المعائش والمساكن ، ودفعهم ذلك الى أبشع صور التكالب والتطاحن على زخارف الحياة . فانهم والموت يتخطفهم ويخترمهم لا ينفكون عن ذلك ، فكيف بهم لو أمنوا الموت وكانوا مخلدين . . ؟

ثم كانوا يملون الحياة ولذائذها كما قـــد يملها من طال عمره حتى يتمنى الموت والراحة منها .

فان قيل لم لم ترفع عنهم المكاره ، حتى لا يتمنوا الموت ولا يشتاقون اليه ؟ . فقد وصفنا ما كان يخرجهم اليه من العتو والأشر الحامل لهم على مافيه فساد الدين والدنيا (١) .

* * *

(هـ) خلق الشواذ :

ومن مطاعن الماديين على انتفاء القصد والتدبير في العالم ، خلـق الشواذ والمشوهين فيـــه ، الخارجين عـن مألوف

(١) توحيد المفضل ، (بتصرف) .

الخلق البشري .

وهو ادعاء باطل وزعم مزيف من وجوه :

١ - إن خلق الشواذ لا يستلزم انكار خالقها ، لمجرد الجهل باسباب شذوذها ، فكان الأجـدر بهم أن يؤمنوا بموجدها ، لاستحالة وجودها من غير موجد ، ثم يتحرو بعد ذلك دوافع شذوذها وأسبابه .

٢ - لقد تجلت حكمة الله تعالى ، ودلائل قصده وتدبيره في أغلب مخلوقاته مما أدهش العقول وبهر الألباب ، ومتى ثبتت حكمة الحكيم ، وصدر منه ما هو مجهول الغاية والقصد ، فلا يقدح ذلك في حكمته ليقيننا بصوابها وسدادها .

لذلك لا يصح ولا ينبغي أن يكون خلق الشواذ دليلا على نفي حكمة الله تعالى ، وباعثاً على جحوده ونكرانه ، وإنما يدل على قصورنا وجهلنا بأسرارها وألغازها .

٣ - لقـد كشف العلم أن ذلك الشذوذ ، وتلك للعاهات المشوهة ، كثيراً ما تنجم عن مرض الآباء واعتلالهم مما يتسبب تشويه نسلهم وشذوذه عن المألوف . وحسبك في ذلك ماتسببه الأمراض الزهرية من صنوف العاهات والزمانات المشوهة للنسل .

٤ - إن من غرائب الماديين أنهم نظروا الى الشواذ نظراً قاصراً غبياً ، وطفقوا يهرفون بشذوذها وانكار صانعها ، وفاتهم أن العلم آخذ في التقدم والإتساع ، وأن ما نجهل حكمته قـد

نعرفه في الغد القريب أو البعيد . وطالما اكتشف العلم أسراراً غامضة وألغازاً خفيـــة ، كانت مبهمة على السابقين . فكان الأجدر بهم أن يعترفوا بقصورهم عن تفهم أسرار الشواذ ، ويرجئوا ذلك الى اتساع العلم وكشفه النقاب عنها ، كما هو ديدن العلماء المتواضعين ، الذين اعترفوا بهذه الحقيقة ، وصرحوا بأن مكاسبهم العلميـــة ، تعتبر جزءا ضئيلا أزاء ما يجهلونه من أسرار الحياة وألغازها الخفية .

واليك نموذجاً من شهاداتهم المعربة عن تواضعهم العلمي :

قال الاستاذ (وليم جيمس) الاستاذ بجامعة (هار فارد) في كتابه إرادة الاعتقاد : « إن علمنا ليس إلا نقطة ، ولكن جهلنا بحر زاخر . والأمر الوحيد الذي يمكن أن يقال بشيء من التأكيد هو : أن عالم معارفنا الطبيعية الحاليـــة محاط بعالم أوسع منـــه ، من نوع آخر لم ندرك خواصه المكونة لـه الى اليوم » (١) .

وقال الدكتور (بول كليرانس ابرسولد) استاذ الطبيعة الحيوية ، ومدير قسم النظائر والطاقة الذرية في معامل أوك ريدج : « لقد كنت عند بدء دراستي للعلوم شديد الاعجاب بالتفكير الانساني ، وبقوة الأساليب العلمية ، الى درجة جعلتني أثق كل الثقة بقدرة العلوم على حل أي مشكلة في هذا الكون ، وإدراك

---

(١) على اطلال المذهب المادي ج ١ ص ١٣٥ ، لفريد وجدى

معنى كل شيء .

وعنـــدما تزايد علمي ومعرفتي بالأشياء ، من الذرة الى الأجرام السماوية ، ومن الميكروب الدقيق الى الانسان ، تبين لي أن هنالك كثيراً من الأشياء لم تستطع العـــلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً ، وتكشف عن أسرارها النقاب » (١) ،

الى كثير من هذه الشهادات .

* * *

(و) خلق المؤذيات :

وكذلك اعترض الجاحدون على خلق المؤذيات ، كالسباع الضارية ، والحشرات المؤذية والهوام القاتلة ، من شأنها الإضرار بالانسان وإيذائه ، منكرين الغاية والقصد من خلقها وايجادها .

والحق أن الجهـل بعلل الأشياء وغاياتها لا يبطل حكمة خلقها وايجادها ، فقد تكون غاية في الصواب ونحن لا ندرك وجه صوابها .

وطالما كشف العلمـاء أسراراً علميـــة كانت مبهمة على الأجيال السالفة ، فمن الغبـــاء أن يعترض الملحدون على خلق المؤذيات لجهلهم بغاياتها وفلسفتها .

على أن تلك المؤذيات لا تخلو من خواص ومنافع ، أدرك

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ٣٨ .

البشر بعضها وأفادوا منها ، وأرجيء الآخر الى رقي العلم واتساع آفاقه .

هذا ولا يعتبر في تلك المؤذيات أن تكون مخلوقة لخير الانسان ومنافعه فحسب ، وإنما هي أمة بنفسها ، ومظهر رائع من مظاهر قدرة الله تعالى ، وإبداعه المدهش .

بيد أن الله عز وجل ، وقى الانسان شرها وأذاها بما منحه من المواهب والوسائل الموجبة لصيانته وحفظه .

• • •

التوحيد

توحيد الله عز وجل : هو أساس الشرائع الإلهية ، ومحور رسالات السماء ، والأصل الاول الذي ارتكزت عليه الأصول الإسلامية ، ومبادئها الخالدة .

وقد أدرك الانسان بفطرتـــه ضرورة وجود الله تعالى ، والإيمان به ، وهو كذلك يستطيع أن يدرك بفكره الواعي ومنطقه السليم ، بداهة توحيده وضرورته ، ويعتقده بقناعة ويسر .

ومصدر هذا وذاك استقراء هذه الكائنات السماوية والأرضية وما ازدانت به من روعة الإبداع ، وجمال التنسيق ، ودقة النظام وحكمة التدبير ، واتحاد القوانين المسيطرة عليها ، وثباتها على مر الدهور والأحقاب . كل ذلك دليل صارخ على وحدة الصانع والمنظم والمدبر .

إذ لو فرض تعدد الآلهة جدلا ، لاستبد كل إله بمشيئته ، واستقل بتدبير سلطانه ، مما يسبب تناقض مشيئتها وغاياتهـا ، ويبعث على بعثرة الكون وفساده .

فاتساق الكون ، ووحدة قوانينه ، واستتباب نظامه ، برهان ساطع على وحدانية خالقه ومنسقه ومنظمه . « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » (١) .

وهكذا يستلهم الفكر الواعي في تأملاته في آفاق العقيدة وآمادها السحيقة المديدة ، آية أخرى من آيات التوحيد ، تلك هي : أنه

---

(١) سورة الانبياء ـ ٢٢ .

لو كان لله سبحانه شريك لنوه عن نفسه ، وأرانا مظاهر ألوهيته وأوفد الينا رسله وسفرائه . وحيث أنه لم يحدث شيء من ذلك ولم يشعرنا به ، فقد ثبتت وحدانية الله عز وجل ، وبطل الشرك كما قال أمير المؤمنين (ع) : « واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك ، لأتتك رسله ، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته ، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه ، لايضاده في ملكه أحد ، ولا يزول أبداً ، ولم يزل » (١) .

وهكذا نستجلي حقيقة التوحيد من تاريخ الأنبياء (ع) ، وهم منار الانسانية ومثلها العليا ، فانهم قد أجمعوا وتواطئوا عبر العصور على الدعوة الى إله واحد ، والتنويه بوحدانيته ، ونفي الشرك عنه « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (٢) .

وقد افترض الباحثون في التوحيد فروضاً جدليـة لتقرير واقع التوحيد :

من ذلك أنه ، لو كان لله عز وجل شريك ، فهو إما أن يكون أعظم قدرة وسلطاناً من الله ، فيكون أحق بالإلوهية وأجدر بها منه ؛ وإن كان أقل منه ، فهو غير لائق بها .

وإن تماثلا : فامـا أن يتفقا على تصميم الكون وتدبيره ،

---

(١) نهج البلاغة ، في وصيته لابنه الحسن .

(٢) سورة الأنبياء : ٢٥ .

أو يختلفان : فان اتفقا على سبيل التآزر والتعاون ، سقطا عن الألوهية لعجز كل منهما واحتياجه إلى الآخر ، والله سبحانه منزه عن العجز والاحتياج .

وإن اختلفا وتعاكست مشيئتهما ، فأراد أحدهما أمراً والآخر عدمه ، لزم اجتماع الضدين ، كحدوث النور والظلام ، والحركة والسكون في آن واحد ، وهو محال .

ولو نفذت مشيئة أحدهما دون الآخر ، كان نافذ المشيئة هو الإله الحق وكان الثاني عاجزاً غير لائق بالإلوهية .

مفاهيم التوحيد :

وللتوحيد مفاهيم قررها المتكلمون : فالله عز وجل واحد ذاتاً وصفاتاً وأفعالا .

فاما وحدة الذات ، فلها معنيان :

١ ـ نفي الشرك عنه ، وقد مر بيانه .

٢ ـ نفي التركيب عنه : لأن المركب مفتقر في تكوينه وتركيبه الى أجزائه وإلى مركب لها . والله سبحانه غني بذاته ، منزه عن الحاجة إلى غيره . فهو محال عليه .

وأما وحدة الصفات : فمعناها أن صفات الله تعالى الكمالية هي عين ذاته ، غير زائدة عليها ، ولا مغايرة لها تغاير الأوصاف عن موصوفاتها الممكنة . فقولنا زيد عالم . أو ماهر ، فلازمه

أن زيداً كان جاهلا ثم اكتسب العلم أو الفن حتى حاز صفة العلم أو المهارة .

أما صفات الله عز وجل فانها عين ذاته ، لا تغايرها ولا تنفك عنها . إذ هي لا تخلو من فرضين : الحدوث ، أو القدم .

والفرض الأول باطل ، لاستلزامه تجرد الموصوف وقتاً ماعنها ، واحتياجه اليها لتحقق كماله . وكونه محلا للحوادث وكلها فروض ممتنعة على الله سبحانه .

والفرض الثاني باطل كذلك ، لاقتضائه تعدد الموصوف بتعدد صفاته القديمة ، فيكون القدير غير العليم ، وهو غير المريد وذلك شرك محال .

والمراد بوحدة الذات والصفات ، أن تلك الصفات هي اصطلاحات اعتبارية ، لبيان وحدة واجب الوجود ، وكماله المطلق بالاسلوب الذي تتفهمه العقول ، وتستسيغه الافهام ، فهي تختلف ظاهراً ، وتتفق واقعاً ، فى تقريب الحقائق العلمية الى الأذهان .

وأما وحدة الأفعال : فمغزاها تنزيه الله سبحانه عن الشرك وافراده في جميع الأفعال ، في الخلق والتدبير والحكم وسائر الأشياء « ألا له الخلق والأمر » (١) . « ألا له الحكم ، إن الحكم الا لله » (٢) .

---

(١) الأعراف ـ ٥٤ . (٢) الانعام ٦٢ ـ ٥٧

كمال التوحيد في الشريعة الاسلامية

ولقد سمت مفاهيم التوحيد ، واكتملت في الشريعة الاسلامية وكتابها الكريم ، سمواً رائعاً ، وكمالا مدهشاً ، فاق الشرائع السماوية وكتبها المقدسة :

فقد ركز القرآن الكريم على تقرير وحدانية الله تعالى تركيزاً قوياً متواصلا ، حتى طهر العقيدة من دنس الشرك والأفكار من ضلالات الجاهلية : وعرضها عرضاً منطقياً أخاذاً يستهوي العقول ويسيطر على الوجدان ، ويلائم الفطرة السليمة :

فجاءت آياته غاية في سطوع الحجة وقوة البرهان :

« لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » الأنبياء : ٢٢ :

« ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من آله ، اذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون » المؤمنون : ٩١ .

ثم وجه خطابه السامي الى عباد الأصنام ومألهي الطواغيت البشرية مستثيراً إبائهم ، ومستنهضاً كرامتهم ، بالترفع عن ذل عبادتها ومهانة تقديسها ، نظراً لخستها وعجزها وهوانها :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » الحج : ٧٣ :

« واتخـذوا من دونه آلهة ، لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا » للفرقان ـ ٣ .

ثم وجه العقول والقلوب الى إله واحـد ، ووحد الأمم والأفراد في عقيدة واحدة ، لا تفرقهم نعرات الشرك ، وعبادة الآلهة المتعددين « ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » يوسف ـ ٤٠ :

فحرر بذلك كرامة الانسان أن تخنع للأصنام والأوثان ، أو تسترقها الطواغيت المتألهة بغياً على الناس .

وحرر الوجدان من عبودية المادة ، وسلطانها الخادع المذل وأمـد المؤمن بطاقات ومعنويات جبارة من الشجاعة والاباء ، فلا يضرع لجبار عنيـد ، ولا تزعزعه الأزمات والشدائد ، لايمانه بسمو رعاية الله تعالى ، وحكمة تدبيره ، ونفاذ مشيئته على الخلق كلهم ، وخضوعهم لإرادته وسلطانه .

وهنـا ندرك بشاعة النكسة التي أصابت المسيحية بعـد انحرافها عن واقع رسالتها الأصيلة ، وطرو الدس والتحريف على كتابها المقدس ، فغدت تتجهم للتوحيد وهو شعار دينها وسائر الأديان السماوية ، وتؤمن بالتثليث وتدعو اليه ، زاعمة أن الله سبحانه متجسد في ثلاثة أقانيم وتلك الأقانيم متحدة في إله واحد ، (تثليث في وحدانية ووحدانية في تثليث) .

صفات الله تعالى : الثبوتية والسلبية

مدخل البحث :

وقبل الدخول في هذا البحث ، يجدر استهلاله بتمهيد وجيز يجلو مفاهيمه ، ويوضح أغراضه .

لقد أوضحت أنه يستحيل على العقل إدراك كنه الله تعالى وعرفان حقيقته ، لعجزه عن ذلك ، فهو محدود الطاقة والقدرة يستطيع إدراك المحسوسات المادية ، ويرتد عاجزاً كليلا عن غيرها .

وحيث كان الله سبحانه منزهاً عن المادة وخصائصها المحسوسة ، استحال على العقل ادراكه وتصوره .

وكما يقصر العقل عن إدراك كنه الله عز وجل ، كذلك يقصر عن ادراك واقع صفاته ، لأنها - كما أسلفنا - عين ذاته ليست زائدة عليها ، ولا مغايرة لها .

وكل ما تدركه العقول وتحيط به الأفهام فهو ممكن محدود غير لائق بالألوهية . والتوحيد الحق هو : الإيمان بالله عز وجل ووصفه بجميع صفات الكمال ، وتنزيهه عن كافة النقائص .

وليست الصفات الثبوتية والسلبية الا اصطلاحات أطلقها العلماء على الله جل جلاله ، توضيحاً لكماله الذاتي المطلق ،

بالأسلوب الذي تهظمه العقول وتستسيغه الافهام .

فهي ليست كصفات البشر المألوفة بينهم ، والتي يطلقها بعضهم على بعض ، وإنما الغرض من صفات الله الثبوتية : نفي أضدادها . فمعنى وصفه (بالقدرة) ، أنه ليس بعاجز ولا يعجزه شيء . ووصفه (بالعلم) ، أنه ليس بجاهل ولا يخفى عليه شيء ، حيث أن العجز والجهل صفتا نقص لا تليقان بالكامل المطلق ذاتاً .

وهكذا المراد من الصفات السلبية ، تنزيهه سبحانه عن جميع النقائص والصفات ، التي لا تليق بجلال ألوهيته ، ولا يتضح الكمال الإلهي للناس الا بنفيها عنه .

وعلى ضوء هذه الفكرة الواعية المتحفظة ، نسير في دراسة الصفات الثبوتية والسلبية ، وشرح مفاهيمها شرحاً مجملا ، يلائم هذه الرسالة الموجزة .

الصفات الثبوتية

وهي صفات الكمال والجمال ، اللازمة لواجب الوجود وعدها علماء الكلام ثمانية : القدرة ، العلم ، الحياة ، الإرادة الإدراك ، القدم والبقاء أزلا وأبداً ، الكلام ، الصدق .

وإنما اقتصروا على هذه الصفات دون غيرها من الصفات الكثر ، لأن صفاته تعالى نوعان : صفات ذات : وصفات أفعـــال .

فصفات للذات : هي الصفات الكمالية ، التي يستوجب اثباتها : كمال واجب الوجود ، ونفيها : نقصه . وهي كما مر بيانه ، عين ذاته ، كالقدرة والعلم والحياة .

وأما صفات الأفعال : فانها حادثة وليست ذاتية فيه ، ولا هي من صفات الكمال التي يستلزم نفيها النقص على الله سبحانه ، كالخالق والرازق والمحيي والمميت . فقـد كان موجداً قبـــل اتصافه بالخالقية والرازقية والإحياء والإماتة .

(١) إنه تعالى قادر مختار :

ومعنى القادر : أنه على كل شيء قدير ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء . وآية ذلك : أن العجز نقص ، لا يليق

بكماله المطلق ، وأنه لولا قدرته الجبارة ، لاستحال عليه الخلق والابداع ، وإنشاء هذا الكون بعناصره الجمة ، وقوانينه الثابتة ونظامه الدقيق الرتيب .

ومعنى المختار : أنه تعالى مختار في أفعاله ، غير مضطر إليها وسيان عليه فعلها أو تركها .

(٢) إنه تعالى عالم :

ومعنى علمه : أنه يعلم جميع الأشياء علماً شاملا ، لايخفى عليه شيء ، حتى أسرار القلوب ، وخواطر الأفكار ، يعلمها قبل حدوثها كعلمه بها بعد حدوثها .

وبرهان علمـــه تعالى : خلق الكائنات وتنسيقها وتدبيرها المستوجب للعلم الشامل بها ، والإحاطة التامة بأسرارها وخفاياها .

(٣) إنه تعالى قديم أزلي ، باقي أبدي :

القديم الأزلي : مالم يسبق بعلة ، والباقي الأبدي مالا يعروه العدم . ودليل أزليته وأبديته : أن واجب الوجود ، هو القائم بذاته ، الغني عن غيره ، ولازمه أن لا يسبقه ولا يلحقه العدم . لأن كل ما يسبقه أو يلحقه العـــدم ، ممكن الوجود ، يوجد بوجود علته ، وينعدم بزوالها .

وحيث كانت علة واجب الوجود ذاتيـــة فيه ، استحال

حدوثها أو زوالها عنه ، لاستحالة انفصال علته الذاتية عنه ، ولولا ذلك لم يكن واجب الوجود .

(٤) إنه تعالى حي :

ليس المراد بالحياة ، الاتصاف بالحس والنمو والحركة المعهودة في الانسان الحي ، فانها من الأعراض الجسمية ، الممتنعة على الله سبحانه . وإنما المراد بالحياة ، اتصاف المولى بالقدرة والعلم ، فمعنى (حي) أنه عالم قادر .

(٥) إنه تعالى مريد ، كاره :

أي يريد الطاعة من عباده ، على سبيل الاختيار ، دون الجبر ، لعلمه بمنافعها لهم . ويكره المعاصي منهم ، كذلك لاشتمالها على المساوىء والمفاسد الضارة بهم .

(٦) إنه تعالى مدرك :

ليس المراد بالادراك ، الاطلاع على الأشياء بالحواس الخمس ، فذلك من خصائص الجسم والجوارح الممتنعة على الله سبحانه .

وإنما المراد به : أن الله عز وجل يدرك جميع ما تدركه الحواس ، من غير جارحة وحاسة مدركة .

والادراك نوع خاص من علم الله تعالى ، العام ، والمحيط بجميع الأشياء ، فهو بمثابة المخصص لعموم علمه الشامل .

وحيث كان مفهوم الادراك داخلا في مصداق علم الله ، استبدل بعضهم صفة الادراك بصفتي السميع والبصير ، لورودهما في القرآن للكريم .

والمراد بهما كما في المدرك : أنه تعالى عالم بجميع المسموعات والمبصرات ، بدون جارحة سمع أو بصر ، لاستحالة ذلك عليه .

(٧) إنه تعالى متكلم :

وهكذا ، لا يقصد بهذه الصفة ، تكلمه بجارحة اللسان ، لتنزهه عن ذلك ، وإنما المقصود بالتكلم : أنه قادر على خلق الكلام فيما شاء من الأجسام ، لإفهام من يريد إفهامه بغاياته ومآربه . كما خلقه في شجرة الطور لتكلم موسى (ع) . وهذا من آيات قدرته الخارقة .

(٨) إنه تعالى صادق :

لاستحالة الكذب عليه ، لأن الكذب صفة ذميمة ، والله سبحانه منزه عن جميع الذمائم والنقائص .

الصفات السلبية

هي الصفات الممتنعة على واجب الوجود ، والتي لا تليق بكماله الذاتي ، لأنها صفات تخص الممكنات ، وتستحيل على الواجب ، فيجب تنزيهه عنها ، وهي ثمانية :

(١) إنه تعالى لا شريك له :

وقد أوضحنا شرح ذلك فى أدلة التوحيد .

(٢) إنه تعالى ليس بمحتاج :

وهو الغني المطلق عن غيره ، لأنه قائم بذاته ، غير محتاج الى غيره ، فيجب استغنائه بذاته عن كل شيء : وافتقار الأشياء كلها اليه ، ولولا ذلك لكان ممكناً محتاجاً .

(٣) إنه تعالى ليس بجسم :

لاحتياج الجسم الى الايجـــاد والمكان ، وهما محالان على واجب الوجود .

(٤) إنه تعالى ليس بمركب :

لاحتياج المركب الى أجزائه والى مركب لها ، والحاجة من صفات الممكنات المستحيلة على الواجب ، الغني بذاته عن كل شيء .

(٥) إنه تعالى ليس محلا للحوادث :

الحوادث : هي الحالات الطارئة ، كاليقظة والنوم ، والحركة والسكون ، والشباب والهرم ، واللذة والألم ، وهي صفات حادثة ، تخص الممكنات ، وتمتنع على الواجب لامتناع تجدد صفة له ، واستلزامها تغيره من حالة الى أخرى ، والواجب لا يتغير ، لأن التغير من سمات القصور والإمكان ، وهو سبحانه منزه عنهما .

أما الأوصاف الواردة في القرآن الكريم ، والأحاديث الشريفة ، كالرضى والغضب ، ونحوهما ، فانهما مؤلة بثمراتها والمكافأة عليها : فثمرة الرضا اللطف والإنعام ، ومكافأة الغضب السخط والعقاب .

(٦) إنه تعالى لا يحل ولا يتحد بغيره :

المراد بالحلول : وجوده سبحانه في محل يضمه ، ويحل فيه .

والاتحاد: هو صيرورة الشيئين شيئاً واحداً ، وهما محالان .

أما بطلان الحلول :

فلاستلزامه الجسمية ، وافتقاره الى المحـــل ، والتطور من حال الى آخر ، والله سبحانه منزه عنها جميعاً .

وأما بطلان الاتحاد :

فانه فضلا عن خرافته وامتناعه بداهة ، يحتم تحديد الواجب باندماجه في غيره ، والمحدود محتـــاج ، والله تعالى منزه عن الاحتياج .

وكيف يتحد الخلاق العظيم في شيء من مخلوقاته القاصرة وهو الغني المطلق عنها ، وكلها مفتقرة اليـــه تعالى ، عن ذلك علواً كبيراً .

(٧) إنه تعالى تستحيل رؤيته بالبصر :

لأن المرئي بحاسة البصر لا ينفك عن الجسم والصورة والمكان وقد عرفت امتناع ذلك على الله سبحانه .

وقد أجمع الامامية على استحالة رؤيته ، وامتناعها ، كما شهد بذلك القرآن الكريم : « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » . الأنعام - ١٠٣

وشذ عن ذلك الاشاعرة والمشبهة ، حيث جوزوا الرؤية

عليه سبحانه ، وهو مكابرة ينقضها العقل والوجدان :

وحيث كانت الرؤية والجسمية محال على الله تعالى ، فيجب تأويل ما يوهم بهما من الآيات الكريمة ، وحمله على المجاز الشائع في كلام العرب .

كقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » . « يد الله فوق أيديهم » « وجوه يومئـذ ناضرة ، الى ربها ناظرة » ، القيامة ٢٢ - ٢٣ .

فالمراد بالعرش : هو الملك ، واستوائه على العرش : استيلائه على الملك ، لأن العرب تصف الاستيلاء بالاستواء :

والمراد باليد في الآية الثانية : القدرة والقوة .

والمراد بالنظر في الآية الثالثـة : النظر الى ثواب ربها ونعيمه في الجنة .

وتطلق (الناظرة) على المنتظرة : أي وجوه مشرقة تنتظر ثواب ربها ، كقوله تعالى : « فناظرة بم يرجع المرسلون » .

(٨) إنه تعالى لا يشبه شيئاً من خلقه :

كما قرره القرآن الكريم : « ليس كمثله شيء » . لضرورة مغايرة كل صانع لمصنوعه . فالكتابة والتصوير والنقش ، كلها مغايرة بداهة للكاتب والمصور والنقاش .

(٩) إنه تعالى لا يفعل قبيحاً :

لأن فاعل القبيح لا يخلو من إحدى الفروض التالية :
يفعله جاهلا بقبحه ، أو عبثاً ، أو احتياطاً ، أو اضطراراً
وكل هذه الفروض : من الجهل ، والعبث ، والاحتياج والاضطرار ، محال ممتنع على الله عز وجل .

• • •

العدل

العدل ، ضد الظلم : وهو سيد الفضائل ، ورمز المفاخر ، وسبيل السعادة والسلام ، وقد أجمع البشر قديماً وحديثاً على تمجيده وضرورته . كما أولته الشريعة الإسلامية عناية كبرى واهتماماً بالغاً ، وجهدت ما استطاعت في تركيزه ، والتشويق اليه في القرآن والسنة .

ولئن كان الاتصاف بالعدل والسير على نهجه ضرورة ملحة في حياة البشر أمماً وأفراداً ، فجدير بالعدل أن يكون صفة حتمية من صفات خالق البشر ومبدءاً أصيلا من مباديء العقيدة الإسلامية .

لذلك وجب الاعتقاد بعدل الله عز وجل ، وتنزيهه عن الظلم ، واجلاله عن جميع منافيات العدل ، من فعل المذام ، والإخلال بالواجب ، وقسر العباد على الطاعة أو المعصية ، وحرمانهم من الثواب ، ونحو ذلك مما لا يليق بعدل الله تعالى .

وقد تضافرت دلائل العقل والنقل على ضرورة عدل الله تعالى ، وامتناع الظلم عليه . واليك طرفاً منها :

(١) إن الظلم قبيح عقلا ، والقبيح محال على الله عز وجل .

(٢) إن اقتراف الظلم ، وممارسة أعماله ، لا تخلو من البواعث التالية : إما الجهل بقبحه ، أو الحاجة اليه ، أو العجز عن تفاديه أو العبث واللهوية ، وكلها ممتنعة على الله سبحانه ، كما عرفت .

(٣) إن الله تعالى قد أمر بالعدل ورغب فيه ، ونهى عن

الظلم وحذر منه ، ومحال على الله تعالى أن يخالف ما أمر بـه ونهى عنه :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي » .

(٤) إنه سبحانه قد نفى الظلم عن نفسه ، وتبرأ منه ، وقوله الحق والصدق . كقوله تعالى : « وما ربك بظلام للعبيد » .

وقوله عز وجل : « ولا يظلم ربك أحدا » .

وقوله سبحانه : « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . إلى كثير من الآيات الكريمة .

وعلى ضوء القرآن وهديه ، تواترت آثار أهل البيت (ع) واليك نموذجاً منها :

فقد (روي أن قوماً من أصحاب أمير المؤمنين ، خاضوا في التعديل والتجوير ، فخرج حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس : إن الله تبارك وتعالى لما خلق خلقه ، أراد أن يكونوا على آداب رفيعة ، وأخلاق شريفة ، فعلم أنهم لم يكونوا كذلك إلا بأن يعرفهم مالهم وما عليهم .

والتعريف لا يكون إلا بالأمر والنهي . والأمر والنهي لا يجتمعان الا بالوعد والوعيد .

والوعد لا يكون الا بالترغيب ، والوعيد لا يكون

إلا بالترهيب .

والترغيب لا يكون إلا بما تشتهيه أنفسهم وتلذه أعينهم .

والترهيب لا يكون إلا بضد ذلك .

ثم خلقهم في داره ، وأراهم طرفاً من اللذات ، ليستدلوا به على ما ورائهم من اللذات الخالصة ، التي لا يشوبها ألم ، الا وهي الجنة .

وأراهم طرفاً من الآلام ، ليستدلوا به على ما ورائهم من الآلام الخالصة ، التي لا يشوبها لذة ، الا وهي النار .

فمن أجل ذلك ترون نعيم الدنيا مخلوطاً بمحنها ، وسرورها ممزوجاً بكدرها وغمومها) (١) .

من أجل ذلك فقد أجمع الإمامية على ضرورة العدل ، واعتباره شرطاً أساسياً من شرائط الإيمان .

وشذ عنهم مخالفوهم إذ جوزوا على الله سبحانه ما ينافي العدل ويمتنع على جلال ربوبيته ، مما ستعرفه في الابحاث التالية :

(١) الجبر والتفويض :

الجبر : هو الدفع على فعل الشيء قسراً وإكراهاً .

والتفويض : هو رفع الحظر عن الخلق ، وتفويض أعمال الخير أو الشر اليهم .

---

(١) البحار م ٣ ص ٨٧ عن احتجاج الطبرسي .

وقد تأرجحت الآراء بين هذين المبدأين المتناقضين ، فزعم الاشاعرة : أن العباد مجبورون على أعمال الطاعة أو المعصية ، جبراً يشل إرادتهم واختيارهم أزائها . لأن الله تعالى خلق أعمالهم وقسرهم عليها .

وحسب المفوضة : أن الله رفع الخطر عنهم ، وفوض اليهم ممارسة أعمال الخير أو الشر تفويضاً مجرداً من حكم الله وسلطانه .

وتجد في هذين القولين تناقضاً صريحاً ، وتطرفاً شاذاً ، أقصاهما عن سنن العقل والشرع .

(أ) كيف يستسيغ العقل حتمية الجبر ، وهو تحد سافر لعدل الله عز وجل ، إذ يقسر العباد على اقتراف الآثام ثم يعاقبهم عليها ؟ !

وكيف يرتضي الوجدان قسر الجبر ، وهو باعث على زعزعة العقيدة ، والتحلل الخلقي ، وشيوع الجرائم والمنكرات لبرائة أربابها من تبعاتها وآثامها ، ونسبتها الى أفعال الله سبحانه ومشيئته ؟ !

وكيف يعتقد المؤمن (بالجبر) وهو يستوجب الغاء الشرائع الإلهية ، وعبث إرسال الأنبياء (ع) ، لانتفاء جدواها وآثارها الإصلاحية في الناس ، لسيطرة الجبر عليهم ، وعجزهم عن الاهتداء بوحي الشرائع ، وتوجيه الأنبياء (ع) ؟ !

(ب) لو كان الناس مجبرين على أعمالهم ، لما استحق المحسن منهم مدحاً ولا ثواباً ، ولا المسيء ذماً ولا عقاباً ، لاضطرارهما الى الطاعة أو العصيان . والمضطر لا يعتبر مطيعاً أو عاصياً .

(ج) هذا الى أن نصوص القرآن أبطلت حتمية الجبر ، وأناطت الأعمال باختيار أربابها ومشيتهم . كقوله تعالى : « كل امريء بما كسب رهين » وقوله : « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » . وقوله : « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » ،

وقوله : « إنا هديناه النجدين ، إما شاكراً وإما كفورا » .

(د) وهكذا أوضح أهل البيت (ع) واقع هذه المعضلة العلمية ، وحكموا فيها حكماً عادلا فاصلا ، يرتضيه الشرع والوجدان ، كما قال الصادق (ع) : « لاجبر ولا تفويض ، ولكن أمر بين أمرين » (١) .

وقد نفى الامام (ع) الجبر والتفويض نفياً قاطعاً ، ثم قرر الحكم الفصل بينهما ، فقال : « ولكن أمر بين أمرين » .

وقد فسر المعنيون بدراسة الأخبار مغزى هذه الجملة (أمر بين أمرين) تفاسير عديدة ، تختلف أسلوباً ، وتتفق واقعاً .

قال الشيخ المفيد رحمه الله : « إن الله تعالى مكن الخلق

(١) الوافي ج ١ ص ١٢٠ ، عن الكافي .

من أعمالهم وأفعالهم ، ووضع لهم حدوداً فيها ، وأمرهم بحسنها ونهاهم عن قبيحها ، فلم يكن بتمكينهم إياها مجبراً لهم عليها ولم يفوض اليهم الأعمال لمنعهم من أكثرها » .

ثم عقب الشيخ المجلسي رحمه الله ، على هـذا الشرح ، قائلا : « إن لهداية الله وتوفيقاته مدخـلا في أفعالهم ، بحيث لا يصل الى حد الالجاء والإضطرار . كما أن لخذلانه مدخلا في فعل المعاصي وترك الطاعات ، لكن لا بحيث ينتهي الى حد لا يقدر معه على الفعل والترك » .

ولا ريب في صحة هذين التفسيرين ، واتحادهما غاية ومغزاً .

وقـد تواترت نصوص أهل البيت (ع) في تقرير هـذه الحقيقة وتركيزها في الأذهان . من ذلك ما حكاه الامام الرضا عليـه السلام قال : « خرج أبو حنيفـة ذات يوم من عنـد الصادق (ع) ، فاستقبله موسى بن جعفر (ع) ، فقال له : يا غلام ممن المعصية ؟ فقال : لا تخلو من ثلاثة :

إما أن تكون من الله عز وجل ، وليست منه . فلا ينبغي للكريم أن يعذب عبده بما لم يكتسبه .

وإما أن تكون من الله عز وجـل ومن العبد ، فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف :

وإما أن تكون من العبد ، وهي منه ، فان عاقبه الله فبذنبه

وان عفى عنه فبكرمه وجوده » (١) .

هـذه هي خـلاصة وجهة نظر الامامية ، في قضية الجبر والتفويض .

أما وجهة نظر الأشاعرة القائلون بالجبر ، فانها ترتكز على الفروض التالية :

(١) إنهم توهموا الجبر من الآيات الكريمة التاليـة : قوله تعالى : « إن الله يهـدي من يشاء ويضل من يشاء » ، وقوله سبحانه : « لا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم » . وقوله عز وجل : « خلقكم وما تعملون » . وقوله عز من قائل : « لا إله إلا هو خالق كـل شيء » . وقـد استنتجوا من هذه الآيات الكريمة . أن أفعال العباد هي من صنع الله عز وجل ، لاندراجها في ضمن مخلوقاته .

(٢) إن الله تعالى عالم بأفعال العبد ، فلو كان العبد مختاراً فيها ، أمكنه تركها ، وتركها يستلزم تغير علم الله بها وانقلابه جهلا وهو محال . فلابد أن يكون العبد مجبراً على أفعاله ومضطراً اليها تفادياً من ذلك المحذور .

(٣) لو أراد العبد أمراً ، وأراد الله خـلافه ، كأن يريد العبد ايجاد شيء ، ويريد الله عدمه ، وتحقق الارادتين يستوجب اجتماع النقيضين ، وجود الشيء وعدمه في آن واحد ، وهو

---

(١) البحار م ٣ ص ٣ عن عيون أخبار الرضا وأمالي الصدوق ،

محال . فلا مناص من نفي إحداهما . ونفيها عن الله ممتنع محال لاقتضائه عجزه . فتعين نفي إرادة العبد وجعله مقسوراً على أفعاله ومضطراً اليها .

ولا ريب في بطلان هـذه المزاعم ، ومخالفتها صميم الشرع والعقل كما أوضحنا ذلك في براهين تفنيد الجبر وبطلانه . فلا محيص من تأويل تلك الآيات الكريمـــة . وشرحها على ضوء المباديء الاسلامية ، ومفاهيمها الأصيلة .

أما قوله تعالى : « إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء » فقد صرح المفسرون ، بأن الهداية تطلق على معان مختلفة ، منها الدلالة على الطريق ، كقوله تعـــالى : « إنا هديناه السبيل » ، « إنا هدينا النجدين » .

ومنها الاثابة ، كقوله تعالى : « والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم » ، فالمراد بالهداية بعد القتل هي : إثابتهم .

ومنها زيادة الألطاف ، كقوله تعالى : « والذين اهتدوا زادهم هدى » .

وهكذا يطلق الإضلال على الاهلاك والعذاب كقوله تعالى : « إن المجرمين في ضلال وسعر » . كما تطلق الغواية في قوله تعالى : « إن كان الله يريد أن يغويكم » على الخيبة والحرمان من الثواب ، والمراد إن كان الله يريد أن يخيبكم ويحرمكم ثوابه

بكفركم وسوء أعمالكم ، فلا ينفعكم نصحي ما دمتم مصرين على ما أنتم عليه .

وقد يراد بالاغواء ، العقاب ، كقوله تعالى : « فسوف يلقون غياً » .

وكلما جاء في القرآن الكريم من الفاظ الضلال والاغواء مضافة الى الله سبحانه ، فانها مؤولة كما أشرنا اليه ، ولا يجوز قسرها على التلبيس والاضـــلال ، لاستلزام ذلك إتهام المولى عز وجل بأبشع صور الظلم والجور ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

والمراد بالخلق في قوله تعالى : « لا إله إلا هو خالق كل شيء » . هو خلق أعيان الأشياء دون أفعالها الحادثة منها .

وعنى بقوله تعالى « خلقكم وما تعملون » ، الأصنام التي كانوا ينحتونها ويعبدونها من دون الله تعالى .

وجواب الفرض الثاني : أن الله عز وجل عليم خبير بجميع الأشياء والأفعال ، يعلمها قبل حدوثها كعلمه بها بعد حدوثها وتبدل عزم العبد من ممارسة فعل الى آخر لا يوجب انقلاب علم الله به جهلا ، لاحاطته وشموله بالعزم الأول والآخر .

وفضلا عن ذلك فان علم الله تعالى بأفعال العباد لا يكون سبباً حتمياً وعلة قسرية في إحداثها وإيجادها . فالعبد حر مختار في فعلها أو تركها .

وجواب الفرض الثالث : أنه لا تناقض بين ارادة العبد

وإرادة الله عز وجل ، لأن الأولى لا تتعدى دائرة العزم والتصميم بيد أن تحققها منوط بارادة الله تعالى ، بتمكينه العبد واقداره على إنجاز مراده وعدمه .

ولو فرض تناقضهما ، فلا ريب في ترجيح إرادة الله عز وجل لقوة مشيئته ونفاذها ، ولكن ترجيحها لا يحتم إجبار العبد وقسره على أفعاله ، فهو كما أوضحنا حر مختار في إنجازها أو تركها .

• • •

وأما فكرة التفويض التى ابتدعها المعتزلة :

ومغزاها أن الله تعالى فوض إلى العباد ما شاؤا من أعمال الخير أو الشر تفويضاً محضاً مجرداً من سلطان الله وأحكامه ، فإنها لا تستأهل النقاش ، لنزوعها وتشجيعها على التحلل والإباحية وتجرئها على نسبة العجز إلى الله عز وجل ، بتجرده من سلطانه واشراك عبيده في تدبير خلقه وهو واضح السقوط .

• • •

(٢) القضاء والقدر :

وقد نال هذا البحث عناية هامة في المدرسة الكلامية ، وكان موضع جدل ونقاش بين أربابها .

وقد اتفق المسلمون على أن أعمال العباد تجري بقضاء الله تعالى وقدره ، كما شهد بذلك الحديث الشريف : « كل شيء

بقضاء وقدر » . بيد أنهم اختلفوا في مغزاهما ومفهومهما ، وتوضيح ذلك يستوجب النظر في واقع الأفعال وتمييز بواعثها .

والأفعال نوعان : اضطرارية ، واختيارية :

فالأفعال الإضطرارية : هي الخارجة عن أرادة الإنسان واختياره ، كدقات القلب ، وطرقات النبض ، وإفراز الغدد .

والأفعال الإختيارية : هي الخاضعة لإرادة الإنسان ومشيئته ، كتحريك اليد أو الرجل ونحوهما من الأفعال الإختيارية التي يستحق فاعلها المدح والثواب عليها كأعمال الخير ، أو الذم والعقاب كأفعال الشر .

ولا ريب في خروج الافعال الإضطرارية عن مجال البحث والنقاش ، لصفتها الاضطرارية وخروجها عن طوق الانسان .

والأفعال الإختيارية هي محور البحث والجدال .

وقد فسر الأشاعرة (القضاء والقدر) بأن الله سبحانه خلق أفعال العباد ، خيرها وشرها ، وأجبرهم على ممارستها ، محتجين على ذلك بآيتين كريمتين ، قوله تعالى « فقضاهن سبع سموات » . وقوله : « وقدر فيها أقواتها » . فحملوا لفظي القضاء والقدر على الخلق والاتمام .

ولا ريب في اشتراك هذين اللفظين بين المعاني المختلفة ، وقصر المشترك على بعض أفراده ومصاديقه دون قرينة مخصصة تعسف واعتباط . فقد دلت الإصطلاحات اللغوية وشواهد

القرآن الكريم على أن للقضاء والقدر معان أخرى سوى ذلك :

فقد ورد القضاء بمعنى الخلق والاتمام ، كقولـه تعالى : « قضاهن سبع سموات » ، يعني : خلقهن وأتمهن .

وورد بمعنى الأمر ، كقوله تعالى : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه » ، يعني : أمر أن لا تعبدوا إلا إياه .

وورد بمعنى الأخبار . كقولـه تعالى : « وقضينـا إلى بني إسرائيل في الكتاب » ، يعنى أخبرناهم وأعلمناهم .

وهكذا ورد القدر في معان مختلفة :

ورد بمعنى الخلق ، كقوله تعالى : « وقدرنا فيها أقواتها » يعني خلقنا فيها أقواتها .

وورد بمعنى الكتابة ، كقوله تعالى : « إلا امرأته قدرناها » يعني كتبناها في الألواح .

وورد بمعنى حكمة وضع الشيء في موضعه دون زيادة أو نقص فيه ، كقوله تعالى : « وقدر فيها أقواتها » .

فقصر لفظي القضاء والقدر ، والحالة هـذه ، على خلق الأفعال فحسب ، مناقض لواقع اللغة والشرع .

هذا إلى أن نسبة خلق الأعمال الى المولى عز وجل ـ طاعة كانت أو معصية ـ تستلزم القول بالجبر ، وهو محال كما عرفت .

وذهب الإمامية إلى أن واقع القضاء والقدر ، ومعناهمـا الحق هو :

أن قضاء الله عز وجل في أفعال عباده ، هو :
الأمر بمحاسنها والنهي عن مساوئها .

وقدره فيها هو : ما شرعه من الأمر بواجبها والنهي عن محارمها ، والثواب على أفعال الطاعة ، والعقاب على المعصية .

وقد أوضح أمير المؤمنين (ع) حقيقة القضاء والقدر ، وصورهما ، تصويراً بليغاً دقيقاً ، كما رواه الكليني (ره) في الكافي :

(قال : كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه جالساً بالكوفة بعد منصرفه من صفين ، إذ أقبل شيخ فجثى بين يديه ، ثم قال له : يا أمير المؤمنين : أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام ، أبقضاء من الله وقدر ؟ ، فقال له أمير المؤمنين : أجل ياشيخ ما علوتم تلعة ، ولا هبطتم بطن واد ، الا بقضاء من الله وقدر فقال الشيخ : عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين ؟ فقال له : مه يا شيخ ، فو الله لقد عظم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون ، وفي مقامكم وأنتم مقيمون ، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ، ولا اليه مضطرين .

فقال الشيخ : وكيف لم تكن في شيء من حالاتنا مكرهين ولا اليه مضطرين ، وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا ، فقال له : وتظن أنه كان قضاء حتماً ، وقدراً لازماً ؟

إنه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقـاب ، والأمر والنهي والزجر من الله عز وجل ، وسقط معنى الوعد والوعيد ، فلم تكن لائمة للمذنب ، ولا محمدة للمحسن ، ولكان المذنب أولى بالإحسان من المحسن ، ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب تلك مقالة اخوان عبـدة الأوثان ، وخصماء الرحمن ، وحزب الشيطان ، وقدرية هذه الأمة ومجوسها .

إن الله تبارك وتعالى ، كلف تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، ولم يعص مغلوباً ، ولم يطع مكرهاً ، ولم يملك مفوضاً ، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطـلا ، ولم يبعث النبيين مبشرين ومنذرين عبثاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار .

فأنشأ الشيخ يقول :

أنت الامام الذي نرجوا بطاعته
يوم النجـاة من الرحمن غفرانا
أوضحت من أمرنا ما كان ملتبساً
جزاك ربك بالاحسان احسانا) (١)

وهذا هو القول الفصل ، والحكم العدل ، في تقرير القضاء والقدر ، وجلاء واقعهما الحق . وقد كشف عن بطلان قول الأشاعرة في خلق أفعـال العباد وقسرهم عليها ، مما يوجب

---

(١) الوافي م ١ ص ١١٧ ، عن الكافي .

إتهام الله عز وجل بالظلم ، ونسبة العبث اليه ، كما أوضحناه في بحث الجبر .

نعم قد يراد بالقضاء ، الحكم الالزامي ، كقوله تعالى : « وقضى ربك أن لا تعبدوا الا إياه » ، أي حكم وألزم ، فذلك مختص بالأحكام والنظم الشرعية ، التي لا محيص من تنفيذها واتباعها ، ويحمل فيما سوى هذا على المعاني السالفة ، كالاعلام والاخبار .

والجدير بالذكر ، أنه جاء النهي والتحذير عن الخوض في القضاء والقدر ، وذلك لأمرين :

أ ـ أنهما مثار شبهات خطيرة تحار فيها العقول ، وتضل فيها الأفهام ، ولا يأمنها إلا العلماء الأفذاذ .

ب ـ وقد يراد منهما النهي عن التعمق والتوسع في معرفة أسرار خلق الله عز وجل ، وعلل تشريعه ، مما أمر به ونهى عنه ، فذلك محظور على العباد ، لعجزهم عن تفهم الكثير من حكمة أفعاله وفلسفة تشريعاته .

فعليهم أن يؤمنوا بذلك إيماناً تعبدياً ، موقنين بحكمة المولى وسمو أغراضه . كما قال تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

. . .

(٣) حكمة أفعال الله تعالى :

يعتقد الإمامية أن أفعال الله تعالى معللة بالغايات السامية ، والمصالح الحكيمة ، لأنه تعالى حكيم منزه عن العبث ، كما شهد بذلك القرآن الكريم في آيات عديدة :

« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » .

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم الينا لا ترجعون » .

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

وخالف الاشاعرة في ذلك ، مجوزين خلو أفعال الله تعالى من الحكم والمصالح ، بحجة استغنائه عنها ، وهو تحد سافر لوجوب حكمته ، واتصاف أفعاله بالغايات والمنافع ، ولا ينافي ذلك استغنائه عنها ، لأن مردها إلى الخلق لا إليه ، فلا يصح تجاهلها وانكارها .

ولا يجب على الله سبحانه توضيح تلك الغايات ، لعجز البشر عن تفهم أكثرها وإدراكه ، بيد أنه تعالى أوضح بعضها وكشف النقاب عنه ، واستطاعت العقول أن تدرك طرفاً آخر منها ، وما سوى ذلك مما يعسر استجلائه وتفهمه يجب الإيمان بحكمته لاستحالة العبث على الله عز وجل .

° ° °

(٤) يسر التكليف الإلهي :

وحيث كان الله عز وجل حكيماً عادلا ، رحيماً بالعباد فهو يكلفهم حسب طاقتهم وإمكاناتهم ، ولا يرهقهم بالتكاليف العسرة الشاقة . كما صرح بذلك القرآن الكريم ، حيث قال : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » :

* * *

(٥) شبهة خلق الكافر وتكليفه :

قد يندفع بعض المهرتقين بالتنديد والإستنكار على الله تعالى في خلق الكافر وإلزامه بالتكاليف الشرعية ، وهو يعلم مآله إلى الكفر والعذاب ، مستشعراً من ذلك إجباره على المعصية ، الذي يتنافا وصميم عدل الله تعالى وحكمته ، وأنه كان الأجدر على حد زعمه عدم خلقه ، وإعفائه من التكليف لينجو من العقاب محتجاً على دعواه بما توهمه من مفهوم الآية الكريمة والحديث الشريف ، وهما : قوله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس » . وقول النبي (ص) : « الشقي شقي في بطن أمه ، والسعيد سعيد في بطن أمه » .

لا . . ليس في خلق الكافر منافاة لعدل الله وحكمته ،

وليس فيه كذلك ما يحتم قسره وإكراهه على الكفر والعصيان ثم مكافاته بالعذاب والعقاب :

فإن خلق الكافر وإيجاده خير من أن يكون عدماً محضاً ، محروماً من نعمة الوجود وخصائصه ، فقد خلقه الله تعالى وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، جسمية وفكرية ، وأتاح له صنوف المتع والمآرب التي لا يتحسسها ولا ينالها المعدوم ، وجعله في الوقت نفسه حراً مختاراً في اعتناق ما شاء من دواعي الإيمان أو الكفر ، دونما قسر أو إكراه على هذا أو ذاك . ثم ضاعف عليه آلاءه وألطافه بفرض التكاليف الشرعية عليه ليوجهه وجهة الخير والصلاح ، ويؤهله للسعادة الأبدية والنعيم الخالد .

وليس في ذلك ما يشعر بالجبر ، وزجه قسراً في العذاب بيد أن الكافر أساء الإختيار وآثر الكفر والعذاب على الإيمان والنعيم :

ولو كان علم الله تعالى بمغبة الكافر ومصيره الخاسر يجعل تكليفه مستهجناً قبيحاً ، لكان العقل - وهو أعظم المواهب الإلهية - موجباً لخسة الإنسان وشقائه ، إذ به يسأل ويعاقب ، وبحرمانه منه يعفى من المسؤولية والعقاب :

هذا الى أن الله عز وجل ، قد أوضح الغاية من إيجاد عامة الخلق جناً وإنساً ، حيث قال : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » :

فالغاية من خلقهم هي عبادته الموجبة لتهذيبهم وتكاملهم وإسعادهم مادياً وروحياً ، دنيوياً وأخروياً .

أما ما توهموه من الاحتجاج بمفهوم الآية الكريمة والحديث الشريف السالفين فان الغرض منهما هو الاخبار والاعلام عن شمول علم الله تعالى وإحاطته بواقع الكفار وما يؤلون اليه من الشقاء ، وسوء المصير ، وأليم العذاب .

. . .

(٦) وجوب اللطف الإلهي :

وهكذا يعتقد الامامية بوجوب اللطف على الله تعالى ، وذلك بتوجيه عباده وجهة الخير والصلاح ، وعونهم على طاعته ومجانبة عصيانه من غير قسر ولا إكراه ، كبعثة الأنبياء (ع) ونصب الأوصياء (ع) .

وهو من آيات كمال الله المطلق ، وحكمته البالغة ، ولطفه الواسع العميم ، إذ يشمل عباده بألطافه المادية والروحية ، ويوجههم الى ما يسعدهم في الدنيا والآخرة .

وليس المراد من وجوب اللطف أنه تعالى مأمور به ، ومفروض عليه من قبل الخلق : وإنما المراد منه ضرورة اتصافه بهذا اللطف ، كضرورة اتصافه بوجوب الوجود .

(٧) حسن الاختبار

ويحسن من الله عز وجل أن يختبر عباده ، ويمتحنهم بما يفرضه عليهم من صنوف التكاليف ، ويبلوهم بألوان المحن والأزمات ، وان كان عليماً بهم ولا تخفى عليه خافية منهم .

وإنما حسن اختبارهم اظهاراً لواقع إيمانهم وأبعاد طاعتهم واتماماً للحجة عليهم ، والزامهم بحقيقة أعمالهم .

« ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنـــا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » العنكبوت .

« الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .

. . .

وقد تم الكتاب بعون الله تعالى وتوفيقه بقلم مؤلفه محمد مهدي بن المغفور له الحجة السيد علي الصدر بن آية الله العظمى السيد حسن الصدر بن هادي بن محمد علي بن صالح بن محمد ابن ابراهيم شرف الدين بن زين العابدين بن علي نور الدين بن نور الدين علي بن الحسين بن محمد بن الحسين بن علي بن محمد ابن أبي الحسن تاج الدين بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن حمزة ابن سعد الله بن حمزة بن أبي السعادات محمد بن أبي محمد عبد الله نقيب نقباء الطالبين ببغداد ابن أبي الحرث محمد بن أبي الحسن علي ابن أبي طاهر عبد الله شيخ الطالبين ببغداد ابن أبي الحسن محمد المحدث بن أبي الطيب طاهر بن الحسين القطعي بن موسى ابو سبحه بن ابراهيم الأصغر بن الامام موسى الكاظم ابن الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي السجاد زين العابدين بن أبي عبد الله الحسين أبي الشهداء ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى جدهم سيد المرسلين وخاتم النبيين .

انتهى الجزء الأول ، ويليه الجزء الثاني في النبوة .

مراجع الكتاب

اسم الكتاب	اسم المؤلف
١ ـ بحار الأنوار	للعلامة المجلسي
٢ ـ حق اليقين	السيد عبد الله شبر
٣ ـ الله	عباس محمود العقاد
٤ ـ دائرة معارف القرن العشرين	محمد فريد وجدي
٥ ـ على اطلال المذهب المادي	محمد فريد وجدي
٦ ـ مع الله في السماء	الدكتور احمد زكي
٧ ـ روح الدين الاسلامي	عفيف عبد الفتاح طباره
٨ ـ محاسن الطبيعة	اللورد افبري
٩ ـ مجلة المختار	
١٠ ـ رسالة التوحيد	محمد عبده
١١ ـ مشكلة الألوهية	الدكتور محمد غلاب
١٢ ـ الله والعلم الحديث	عبد الرزاق نوفل
١٣ ـ توحيد المفضل	الذي يرويه المفضل بن عمر
١٤ ـ الله يتجلى في عصر العلم	بأقلام جماعة من العلماء
١٥ ـ مبادىء العلوم العامة	تأليف جماعة
١٦ ـ عجائب السماء والفلك	منصور حنا جرداق

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٩	المقدمة
١٥	الايمان فطري في النفوس
١٥	الايمان حاجة نفسية ملحة
١٨	الايمان ضرورة عقلية
١٨	الايمان ضرورة أخلاقية
١٩	الايمان ضمانة دينية
٢١	البراهين الفلسفية على وجود الله تعالى
٢٤	برهان الخلق
٢٥	برهان الغاية
٢٦	برهان الأخلاق
٢٩	البراهين الكونية على وجود الله تعالى
٣١	عجز الانسان عن ادراك كنه الله تعالى
	عالم السماء
٣٧	الشمس
٤١	القمر
٤٢	النجوم
٤٥	الفلك
	عالم الجو
٥١	الهواء
٥٣	الليل والنهار
٥٥	الصحو والمطر
	عالم الانسان
٥٩	أطوار الجنين
٦٣	حكمة التصوير
٦٥	سمو الابداع
٦٦	عظمة المواهب
٧١	نقض نظرية دارون
	عالم الحيوان
٨٥	النمل
٨٧	النحل
٨٩	الطير
٩٠	السمك
٩٢	رد من ينكر فطنة الحيوان والهامه
	عالم النبات
٩٧	البذرة
٩٧	الجذور
٩٨	الساق
٩٩	الورق
٩٩	التركيب الضوئي
١٠٠	المنتح

الصفحة	الموضوع
١٠٠	التنفس
١٠١	الأزهار
١٠٢	الثمار
١٠٧	البراهين القرآنية على وجود الله تعالى
١١١	براهين أهل البيت (ع) في إثبات الصانع
١٢١	أقوال علماء الغرب في إثبات الصانع

مناقشة الماديين

١٣١	شبهة الماديين
١٣٢	لابد للمادة من خالق وموجد
١٣٣	اتصاف المادة بالقصور الذاتي
١٣٣	خلو المادة من العقل والحياة
١٤٠	رد الطبيعيين
١٤١	فناء المادة
١٤٢	الذرة وأجزائها
١٤٥	نتائج خصائص المادة
١٤٩	رد شبهة الصدفة
١٥٣	رد شبهة قدم العالم
١٥٥	رد شبهة الحسيين
١٥٨	رد شبهة الارزاء
١٥٨	الأمراض
١٦٠	آفات الصواعق والزلازل ونحوهما
١٦٣	الشرور الاجتماعية
١٦٥	الموت
١٦٦	خلق الشواذ
١٦٩	خلق المؤذيات

التوحيد

١٧٣	أدلة التوحيد العقلية
١٧٥	مفاهيم التوحيد
١٧٧	كمال التوحيد في الشريعة الاسلامية
١٨١	صفات الله تعالى الثبوتية
١٨٥	صفات الله تعالى السلبية

العدل

١٩٣	فضل العدل ودلائله
١٩٥	الجبر والتفويض وبطلانهما
١٩٧	رأي أهل البيت (ع) في الجبر والتفويض
١٩٩	رأي الأشاعرة في الجبر
٢٠٠	في تفنيد رأيهم
٢٠٢	ابطال التفويض
٢٠٢	القضاء والقدر
٢٠٨	حكمة أفعال الله تعالى
٢٠٩	يسر التكليف الإلهي
٢٠٩	رد شبهة خلق الكافر
٢١١	وجوب اللطف الإلهي
٢١٢	حسن الاختبار
٢١٣	المراجع

٢٠٠٠ - ١٩٧٠/١٠/٢٠

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY